KASER ALHOB

قصر الحب

رواية

بربارة كارتلاند

www.rewity.com
dodyadodo

www.rewity.com
dodyadodo

قصر الحب

عاش يتيم الوالدين، هذّبه جده، فشب صلب العود قادراً على تحمل المسؤوليات.

أثناء خدمته في الهند كضابط في الجيش الملكي البريطاني فقد بصره... عاد إلى مسقط رأسه ليعيش وحيداً في قصره، بعد أن فقد جده وأخيه، على أمل الزواج من خطيبة أخيه السابقة، بناءً لوصية جده، رغم أنه لم يرَ لها وجهاً ولم يسمع لها صوتاً...

حين التقيا... لم يكن للحب مكان بل للجشع.

ISBN 9971201471-8
9789971201471

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان. بلوك ب طابق 3. شارع الكويت. المنارة. بيروت 6308 2036
لبنان. تلفاكس: 009611-740110، E-mail.alkhayal@inco.com.lb

www.rewity.com
dodyadodo

قصر الحب

قصـر الحـب

بربـاره كارتـلانـد

ترجمة: **د. علي الحداد**

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

الفصل الأول

بينما كانت باخرة الركاب «ستار أوف إنديا»، تختال فوق مياه المحيط الأطلسي، مقتربة من شواطىء بريطانيا، كانت الكونت هيغو دي ريڤان، يتكيء على السياج الحديدي، عند مؤخرة الباخرة، قبالة الأشرعة التي تتلوى مع الريح.

نادراً ما كان الكونت، يخرج من مقصورته ويصعد إلى متن السفينة. طيلة الرحلة من الهند حتى هذه اللحظة، لحظة الإقتراب من الشواطىء البريطانية، لم يتكلم مع أحد من الركاب إلا نادراً وبإيجاز، مع أنه كان محط أنظار الجميع، والنسوة خاصة، المعجبات بسمرته التي منحته إياها شمس الهند خلال السنوات العشر التي أمضاها هناك كضابط في جيش صاحبة الجلالة.

ـ يبدو أنه متكبر متعجرف. قالت إحداهن لصديقتها جورجينا.

ـ لا أعتقده كذلك، بل أعتقد أنه إنسان إنطوائي، يحب العزلة والإنفراد، أجابت جورجينا وهي ترمقه بنظرة إعجاب. ومضت «لكنه الرجل الذي يُشتهى».

ببطء وهدوء وعفوية مصطنعه، تقدمت جورجينا منه.

ـ أتظن أن عاصفة ستهب قبل رسو الباخرة؟

أدرك الكونت مبتغى جورجينا. إنها غير مهتمة بالعاصفة، بل بمحادثته، ولربما كسب وده؛ هذا ما علمته إياه تجربته مع نساء الضباط أو بناتهم.

ـ لست منجماً ولا نبياً. ولا أعمل في الأرصاد الجوية يا سيدتي... لذلك لا جواب عندي. قال هذا دون أن يحاول الإلتفات إليها، أو منحها ابتسامة من شفتيه كما كانت تتمنى؛ فأمسكت يد صديقتها وابتعدتا عنه فربما غيره يكون يرغب في التحدث معهما.

ستار أوف إنديا، ما تزال تختال في مسيرتها، غير آبهة للريح التي بدأت تشتدّ، ولا للأمواج التي تتكسر على هيكلها.

عشر سنوات... أمضاها الكونت في الهند، وها هو اليوم، عائد إلى وطنه الأم. إنما ـ ويا للأسف ـ لن يكون هناك أحد بانتظاره. كان صغيراً حين توفي والداه، بحمى التيفوئيد، فانتقل برفقة شقيقه الأكبر كريسبيان للعيش، في قصر آل ريڤان، وبكنف جدهم الذي يبدو إنساناً قاسياً، لكنه في الحقيقة حنون وعطوف.

كان كريسبيان خجولاً خمولاً وانطوائياً، على عكس هيغو الذي يتمتع بالحيوية والحماس، وحب الإستكشاف والمعرفة، لم يكن يتوانى عن دخول الكهوف والمغاور المتواجدة قرب القصر، أو تسلق أشجار الحور الباسقة، أو الغطس في مياه النهر المجاور. تصرفاته هذه، جعلته مسؤولاً عن أخيه البكر، حتى في المدرسة الداخلية، حيث كان بعض الطلاب يحاولون استغلال خجل

وانطوائية كريسيبان. فكان هيغو يتصدى لهم، ويمنعهم من الإستهزاء بأخيه.

رغم كل هذا، فلقب الكونت سيكون من نصيب كريسبيان كونه الإبن الأكبر، ويستفيد من التقديمات التي تقدم لحاملي هذا اللقب؛ لذا، لم يكن بد من إيجاد عمل يليق بمكانة العائلة. فكان أن دخل المدرسة الحربية وتخرج منها ضابطاً ثم سافر مع فرقته إلى الهند...

كان وداعه لأخيه حاراً وجد عاطفي... دون أن يدري، أن لا لقاء بعد هذا الوداع.

كان هيغو، يتكىء إلى السياج الحديدي عند مؤخرة الباخرة، ويسترجع ذكرياته العتيقة في لندن، لا شك أشياء كثيرة قد تغيرت، عشر سنوات... إنها ليست بالزمن القصير، فقد خلالها أخاه الذي توفي متأثراً بالكوليرا أثناء مشاركته في حرب القرم، دون أن يستطيع حضور جنازته، بسبب حالة التمرد التي قام بها السكان الهنود ضد الإحتلال الإنكليزي لبلادهم، فأحس، أنه فقد جزءاً مهماً من كيانه. بكاه، كما تبكي الأم الثكلى وحيدها، ومنذ زمن ليس ببعيد توفي جده، فانتقل الإرث إليه، الأموال المنقولة وغير المنقولة. ولقب الكونت أيضاً.

ثانية حاولت جورجينا وصديقتها لاتيسيا لفت نظره، فاقتربتا منه، وراحتا تتحدثان عن المشاعر والأحاسيس، وبصوت مسموع.

ساعات قليلة، صاحت جورجينا؛ ونصل، أنظري لاتيسيا، إنه الشاطىء البريطاني... شاطىء الوطن الأم. جميع الركاب

www.rewity.com dodyadodo

المتواجدين على متن السفينة، راحوا ينظرون إلى شواطىء بريطانيا...

تعجب البعض لعدم اهتمام الكونت برؤية اليابسة الإنكليزية. و لم يحاول أحد منهم فهم معنى تلك الإبتسامة الحزينة التي ارتسمت على شفتيه. حين سماعه «ها قد وصلنا...إنه الشاطىء البريطاني». كم كان، هو أيضاً، يتمنى مشاركة الآخرين متعتهم هذه، متعة رؤية الشاطىء... شاطىء الوطن الأم. لكن الحرب أفقدته نظره... لذا فهو الآن يكتفي بالإبتسام ليس أكثر، دون أن تدرك أية فتاة، من اللواتي حاولن لفت نظره، أن العمى، هو سبب عدم اهتمامه بها أو بغيرها...

قصر ريڤان، بأسجيته من شجر الحور والسرو، وحدائقه الغنية بشتى أنواع الورود والأزهار، والممرات المرصوفة بالحصى الأبيض، وبواباته المصنوعة من خشب السنديان، والتماثيل الحجرية الرابضة عند مدخله، كان يدل على عراقة مجد هذه العائلة وعزها المتوارثين جيلاً بعد جيل، و لم يكن غريباً على جيسينا إبنة الدكتور كارلتون التي حضرت اليوم برفقة والدها، لاستقبال الكونت هيغو العائد بعد غياب طويل... تعودت جيسينا زيارة هذا القصر... والدها، كان طبيب الكونت ريڤان الخاص، وكان يصطحبها معه حين يأتي لمعاينته أسبوعياً؛ حتى أن علاقته بالكونت المرحوم، تعدت علاقة الطبيب بمريضه، إلى علاقة صداقة حميمة؛ فكانا يمضيان، الأوقات يتسامران ويلعبان الورق أو الشطرنج، لذا جعله الكونت مسؤولاً عن تنفيذ وصيته.

ـ أهلاً بك سيدي، قالت الخادمة عند مدخل القصر، وهي تستقبل الدكتور كارلتون وابنته جيسينا ومضت تقول «أتسمح لي بالقبعة سيدي؟».

ـ أجل نانسي... شكراً على اهتمامك... أرى الجميع منشغلين اليوم؟ أهذا ما منع رئيس الخدم جارولد من استقبالي؟

ـ إنك محق فيما تقول، سيدي الطبيب، فكما تعلم. اليوم سيصل الكونت هيغو، وعلى جارولد، التأكد، من أن كل شيء في مكانه...

لم تتمكن نانسي من إكمال حديثها، إذ اضطرت لمسح الدموع التي انهمرت على خديها.

ـ إهدأي يا نانسي... قال الدكتور كارلتون. لماذا هذا البكاء.

ـ كيف لي أن أهدأ؟ والمآسي تتالى... منذ عام ونيف توفي كريسبيان ومنذ أشهر قليلة توفي الكونت العجوز، وها هو السيد هيغو، يعود اليوم...

سكتت نانسي و لم تكمل... إنها لا تريد القول «ها هو اليوم يعود كفيف البصر...» كانت تتمنى لو بمقدورها، أن تطرح أسئلة كثيرة... أن تتساءل «ولماذا هذا الإهتمام، بإعادة ترتيب غرف النوم والجلوس وصالونات الإستقبال؟ لماذا كل هذه الورود الموزعة بين الزوايا وعلى الطاولات؟».

حدق الدكتور كارلتون بوجه الخادمة التي ما تزال في ريعان الشباب، ثم أطلق تنهيدة من أعماق صدره «نانسي... علينا نسيان

المآسي، والتطلع إلى لحظات فرح... علينا مساعدة الكونت على تقبل حياته الجديدة. لا أن نزرع اليأس في صدره».

إلتفت الدكتور نحو ابنته.

ـ لا شك، وكالعادة، ستقومين في جولة داخل القصر؟

ـ وفي الحدائق أيضاً... أجابت جيسينا...

ـ حسناً، أنا في غرفة المكتبة....

لاحظت جيسينا، أن والدها يكبت مشاعره... وأنه مضطرب حزين... لكنها لم تتفوه بأي كلمة، بل توجهت نحو الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني من القصر، وتوقفت أمام لوحة زيتية تجمع حفيدي الكونت المرحوم. كريسبيان يجلس على كرسي هزاز، وإلى جانبه يقف هيغو بعينيه السوداوين ونظراته الثابتة المعبرة عن شخصية قوية وإرادة صلبة... إنها نظرات التحدي...

لم يسبق لجيسينا، أن التقت هيغو إلا مرة واحدة... كانت في الثامنة من عمرها، وكانت تلعب في حديقة القصر، قرب النهر، فهبت ريح وأخذت قبعتها ورمتها في النهر، عبثاً حاولت جيسينا استعادة القبعة، المياه تتقاذفها، وهي تركض خلفها. وإذ بشاب بهي الطلة يقف قربها، يحدق بها مبتسماً بسخرية فيما الريح تلاعب شعره الأسود، فيتمايل يمنة ويسرى.

ـ ما بك تنظر إليّ هكذا؟

ـ لا شيء مطلقاً... ولكن أتسمحين؟

ـ وبماذا أسمح؟

ـ باسترجاع قبعتك؟

ـ ولكن كيف يمكنك ذلك، فمياه النهر هادرة؛ والطقس بارد؟

ـ وما همك أنتِ؟ وأخذ ينزع ثيابه حتى أصبح شبه عارٍ، غير آبه لوجودها، وقفز إلى الماء... واستعاد القبعة.

استغربت جيسينا جرأته، ورغبته في مساعدتها، مع أنه لا يعرفها.

ـ كيف لي أن أشكرك سيدي؟ قالت وهو مستلقٍ على العشب الأخضر عند ضفة النهر.

ـ بقولك من تكونين؟

ـ أنا جيسينا كارلتون.

ـ آه... أنتِ ابنة طبيب جدي؟

ـ وهل أنت حفيد الكونت دي ريڤان؟

ـ نعم إنه جدي..

لملم هيغو ثيابه، وراح يعدو بين الشجر... وبعد أسبوعين غادر إلى الهند...

كان ذلك منذ عشر سنوات، لكن عشر سنوات، ليست بالفترة الزمنية القصيرة... أشياء كثيرة تبدلت خلالها، وتغيرت... ورغم هذا، ما تزال جيسينا تتذكر تلك اللحظة، واليوم تتمنى لو

أنه عائد وهو يبصر ليراها صبية، كما رآها فتاة صغيرة.

بعد تأمل للصورة، أكملت جيسينا طريقها نحو المطبخ، حيث كان الطهاة منهمكين، بإعداد أنواع عدة من الطعام، وبخاصة تلك التي يحبها الكونت. بعد المطبخ، توجهت إلى غرفة السيدة العجوز سارا، مربية كريسبيان وهيغو.

ما تزال سارا تحتفظ بألعاب الطفلين، كما تحتفظ بطفولتهما في ذاكرتها. الحصان الخشبي الهزاز... القوس والرمح، مجسمات خشبية للعديد من أنواع الحيوانات، وكرات بلاستيكية.

كان الحزن واضحاً على محيا المربية العجوز، التي ما إن دخلت جيسينا إلى غرفتها، حتى بادرتها بالقول «كنت أتمنى لو يعود ويرى هذه الألعاب، ويستعيد ذكريات طفولته... كان شقياً جداً... على عكس شقيقه المرحوم كريسبيان الذي كان هادئاً، ونادراً ما يخرج من هذه الغرفة... لم يكن يحب المغامرة... بينما هيغو، كان مغامراً مجازفاً... يسبح في النهر، حتى في شهري شباط وآذار، غير آبه لبرودة المياه، ولا لصخبها».

فيما، كانت جيسينا تشرب الشاي الذي أعدته سارا، أحبت أن تسأل عن الآنسة فيليسي دي ليل التي كانت خطيبة المرحوم كريسبيان.

- يبدو أنكِ لا تعلمين شيئاً يا ابنتي؟

- ومن أين لي أن أعلم... من تكون؟

- إنها يا ابنتي، ابنة صديق حميم للكونت دي ريڤان. صديق

انتهى مفلساً، فعهد للكونت المرحوم برعايتها، وبالفعل، لم يتوانَ هذا الأخير عن الإهتمام بها، فأدخلها مدرسة داخلية في جنيف، وتكفل بجميع التكاليف، إن من ناحية الأقساط المدرسية، أو مصروف الجيب، وفي صيف 1852 ذهب الكونت، وبرفقته حفيده كريسبيان في رحلة استجمام إلى أوروبا، حيث تعرف كريسبيان بفيليسي ابنة السادسة عشر من العمر، الكستنائية الشعر، خضراء العينين، ممشوقة القوام، التلميذة الناجحة بتفوق، فأغرم بها، وبدلاً من أسبوع، دامت الرحلة شهراً، تمكن خلاله كريسبيان من كسب ودها. وهكذا تمت خطوبتهما، على أن يتم القران، بعد بلوغ فيليسي الحادية والعشرين؛ وهنا، في هذا القصر، الذي لم يسبق لها أن زارته حتى اليوم، وكما تعلمين، بعد ثلاث سنوات. في عام 1855، أحب كريسبيان، أن يثبت لخطيبته أنه إنسان شجاع، وليس خمولاً، فانخرط في صفوف الجند الإنكليز الذاهبين إلى معركة القرم، حيث توفي بداء الكوليرا.

بعد تخرجها من المدرسة، عرض عليها الكونت، المجيء إلى هنا للعيش في هذا القصر، لكنها رفضت. وأصرت على السكن في إحدى قرى الجبال السويسرية.

- وماذا بعد؟ تساءلت جيسينا، وهي ترتشف الشاي الساخن وتأكل البسكويت المغطى بالشوكولا.

تنهدت المربية العجوز... أخذ هيغو يراسلها من حين لآخر، لكن المرحوم شجعه على طلب يدها، مع أن أياً منهما لا يعرف الآخر، وكان له ما أراد.

ـ سيتزوجان إذن؟ تساءلت جيسينا.

ـ لكن الأمر مختلف الآن... فكما تعلمين، هيغو مصاب بالعمى، وقد لا تقبل أن تربط مصيرها بمصيره، إنما هناك فتيات كثيرات من عليه القوم، يتمنين ذلك.

ـ وأنتِ ماذا تعتقدين؟

ـ أنا لا أعتقد شيئاً... كل ما أعرفه أنه يفترض بالزواج أن يتم قبل نهاية العام الحالي...

ـ هكذا إذن؟ قالت جيسينا...

أحست بغصة في صدرها... لماذا هذا الإهتمام به؟... لم تره لأكثر من دقائق، ومنذ سنوات عشر، لكن ذكرى هذه الدقائق القليلة، ما تزال في بال جيسينا، وترفض نزع صورته من رأسها «سيتزوج من فيليسي إذن؟» قالت في سرها، وأذناها تصغيان، إلى صوت دواليب عربة تقترب من مدخل القصر.

أطلت جيسينا من النافذة، فإذا بها ترى عربة تجرها أربعة أحصنة... على أبوابها محفور شعار آل دي ريڤان... ها هو قد وصل.

الفصل الثاني

إلى جانب والدها، عند مدخل القصر وقفت جيسينا، لاستقبال الكونت العائد.

جارولد، رئيس الخدم، كان يقف على عتبة المدخل الرئيسي، وقفة تدل على ثقة بالنفس، ولكن الحزن كان بادياً على محياه.

المرافق الشخصي للكونت هيغو، كان أول النازلين من العربة، وبحركة بدت جد عفوية، مد يده لمساعدة الكونت في النزول والتوجه نحو المدخل الرئيسي للقصر.

«لقد تغير كثيراً» قالت جيسينا لنفسها. «إنه أكثر نحافة مما كان عليه يوم التقيته منذ عشر سنوات، وأكثر اسمراراً.... لكنه الآن أكثر وسامة».

أحست برعشة في جسدها، ورغبة في ضمّه إلى صدرها، لكن الحياء منعها.

جارولد، كان أول المستقبلين... إنه التقليد المتوارث، وما إن وصل الكونت الذي عبر الممر نحو المدخل الرئيسي للقصر، برأس مرفوع، إلى بوابة الدرج المؤدي إلى قاعة الإستقبال، حنى انحنى جارولد وهمس في أذنه.

ـ إنها الدرجة الأولى سيدي.

ـ شكراً جارولد... أوليس هذا اسمك؟

ـ نعم سيدي... إنه لكذلك، والخدم كلهم في انتظارك في قاعة الإستقبال سيدي.

ـ حسناً جارولد... ولكن كم عدد درجات هذا الدرج؟

ـ خمس سيدي.

هكذا صعد الكونت درج المدخل دون تعثر: وما إن أطل على الخدم، حتى اندهشت الخادمات الحديثات العمل في القصر.

ـ يا له من رجل وسيم، أنظري إلى قامته الممشوقة، ومنكبيه العريضين... إلى شعره الأسود... إنتبهي لفمه، إنه شهواني... قالت إحداهن لزميلتها التي كانت مأخوذة بابتسامته.

رغم التعب والإنهاك، أبى الكونت إلا أن يصافح كل فرد من مستقبليه الذين تولى جارولد مهمة تعريفه عليهم.

ـ إنها السيدة روز...

لم يسمح الكونت لجارولد أن يكمل حديثه فقاطعه «الطاهية الممتازة».

مدّ هيغو يده لمصافحتها وهو يقول «لمن دواعي سروري أن أتناول مجدداً، ما تعدين من طعام».

جيسينا كانت خائفة من ألا يتذكرها أبداً... ولا يتذكر حتى من تكون... أيعقل أن تكون، تلك السنوات العشر، قد محت من

ذاكرته، ذلك اللقاء؟ لقد جازف من أجل استعادة قبعة، واليوم، لا يحاول تذكر من أكون؟ أفكار كثيرة تهادت في رأس جيسينا... ولكن «لماذا كل هذا الإهتمام به؟ فحتى أنا، ما كنت عرفته لو التقيته و لم يعرفني إليه أحد؟».

تابع الكونت طريقه نحو قاعة الإستقبال، لكن نانسي تجرأت، ومدت يدها لمصافحته، دون إذن من جارولد، وخلافاً للتعليمات المعطاة.

ـ إنها نانسي... قال جارولد.

ـ آه... نانسي... تلك الخادمة الصغيرة التي كانت تساعد المربية سارة.

ـ نعم هذا أنا سيدي... قالت نانسي... لكني كبرت. و لم أعد تلك الخادمة الصغيرة... ولما كنت ستتعرف إليّ لو كنت تبصر سيدي.

وساد همس بين الجميع... لقد تخطت نانسي حدود اللياقة... نسيت أنها خادمة ولا يحق لها مخاطبة مخدومها بهذه الوقاحة.

ـ عفوك سيدي... قال جارولد... سأوبخ هذه الخادمة الوقحة، وأصرفها من العمل إذا شئت... إني أعتذر سيدي.

ـ لا... لا تفعل هذا يا جارولد... علينا التكيف مع الواقع... فتوبيخها لا يعيد لي نظري، ولا صرفها من الخدمة.

www.rewity.com dodyadodo

أدركت جيسينا، أن ما قالته نانسي، سيقوله كثيرون غيرها، ولكن همساً أحياناً وبصوت مرتفع أحياناً أخرى. وأدركت أيضاً أن الكونت مدرك لهذا.

تنهد جارولد «وأخيراً سيدي الكونت، هذا هو الدكتور كارلتون، وابنته إلى جانبه».

ـ دعني أشد على يدك دكتور كارلتون... كثيراً ما أخبرني جداً عنك، فما خلت رسالة من ذكرك... أنت لم تكن طبيبه الخاص وحسب، بل كنت صديقه الوفي، لكنه كان يشتكي، أنك كثيراً ما كنت تهزمه في لعب الورق.

ـ كان يبالغ... فلطالما هزمني بالشطرنج... جدك كان إنساناً مميزاً... إني أفتقده جداً...

ـ حسناً دكتور كارلتون... أتسمح بانتظاري في غرفة المكتبة. ريثما أكون، بدلت ثيابي، وألقيت التحية على مربيتي سارة، وإلا ستعود لتلقنني دروساً في الأخلاق والقيم والواجبات.

ـ لك ما تريد سيدي الكونت... أنا بانتظارك.

تعجبت جيسينا، لم يتنازل أحد ويقدمها له. جارولد اكتفى بالقول «الدكتور كارلتون، وابنته إلى جانبه» وكأن هذه الإبنة لا إسم لها، حتى والدها، ما كان ليفعل لو لم يهتف أحد الخدم باسمها.

ـ عفوك سيدي الكونت، أقدم لك ابنتي جيسينا.

رفعت جيسينا رأسها وراحت تحدق بوجهه الأسمر وشفتيه

المبتسمتين، ثم عادت فانحنت أمامه وهي تمد يدها لتأخذ يده الممدودة لمصافحتها.

ـ جيسينا... إسم جميل ونادر... لم أسمع به من قبل.

بدت الخيبة واضحة على ملامح وجه جيسينا... تذكر الجميع، حتى نانسي، بينما لم يتذكرها وحسب، بل وحتى لم يذكر أن سمع بهذا الإسم. «لا وجود لي في ذاكرته».

ـ إذن، نلتقي في قاعة المكتبة، لن أجعلك تنتظر كثيراً، دكتور كارلتون، ليس أكثر من نصف ساعة.

ـ سيكون ذلك.

ذهب كلٌ في اتجاه، وجيسينا، شاردة الذهن، يغتالها القلق، تنتابها الحيرة... كانت تتوقع لقاءً حاراً، دون أن تدري لماذا.

بعد ساعة، كان الدكتور كارلتون، يجلس على مقعد جلدي وثير، قبالة الكونت، وجيسينا تقف قرب النافذة تنظر إلى الحديقة حيناً، وإلى الكونت أحياناً أخرى، تشرب الشاي، وتأكل البسكويت المغطى بالشوكولا، بينما الكونت يشرب الويسكي وكذلك والدها، الذي لم يكن راغباً بذلك لكنه تراجع وقبل شرب الويسكي، استجابةً لإلحاح الكونت الذي أراد أن يشرب نخب جده.

«لماذا لم يتذكرني؟» تساءلت... ترى لو لم يكن كفيفاً، هل كان سيتذكرني؟ وكيف يكون ذلك؟ لم نلتقي إلا لدقائق معدودة، فهل يعقل أن تبقى هذه الدقائق محفورة في ذاكرته؟ ولماذا لا...؟ فهي ما

تزال محفورة في ذاكرتي. ما انفكيت أستقصي أخباره، ورفضت تودد الكثيرين إليّ بسببه...» وكثيراً ما كان والدها، يلومها على ما تفعل، مع أنه يجهل سبب رفضها مصادقة أحد من الشبان.

كانت في حدود الرابعة عشر من العمر، حين توفيت والدتها. ومنذ ذلك الحين، وهي رفيقة والدها، في حِلّه وترحاله، حتى أصبحت تتقن مهنة التمريض والقيام ببعض الأعمال الجراحية البسيطة. ولا شك أن هذه السنوات الأربع انعكست، على شخصيتها، ونظرتها إلى الحياة. تعرفت إلى آلام الناس، ومعاناتهم، وكذلك شاركتهم بعضاً من أفراحهم.

ورثت عن والدتها، الشفاه القرمزية والبشرة الناعمة، والشعر الأشقر المتماوج، وورثت عن والدها، عينين خضراوين واسعتين، دائمتي الإشعاع، وكذلك ورثت عنه، روح الدعابة، وحب المساعدة والعطاء.

كل شبان المنطقة، يمنون النفس، بنيل ابتسامة من شفتيها. وها هي الآن، تبتسم للكونت هيغو، وهو لا يعيرها أي اهتمام... وأنّى يكون هذا؟ فهو عدا عن أنه غير قادر على إبصارها، فهو كونت، وهي ابنة طبيب الضيعة: كذلك إنه ينوي الزواج من فيليسي، خطيبة المرحوم أخيه التي لا شك، تمكنت من استمالة الجد إليها، فطلب من حفيده هيغو أن يتزوج منها. ترى، هل هي جميلة وفاتنة بالقدر الذي وصفتها سارا... لا شك أنها تحسن اختيار الكلام المؤثر بالآخرين... هذه حكاية أشبه بالروايات. لا هو التقاها، ولا هي رأت له وجهاً... وسيتزوجان... كيف يكون ذلك...؟».

ـ جيسينا... أنت هنا أم على القمر يا ابنتي؟

جاء سؤال والدها، ليعيدها إلى الواقع... لماذا كل هذه التساؤلات؟ ولماذا هذا الإهتمام به؟

ـ أنا هنا يا أبي، كنت أراقب العصافير، تطير عن غصنٍ لتحطّ على آخر... وكذلك الفراشات تنتقل من زهرة إلى أخرى.

ـ أدركت أنك سارحة الذهن....

ـ لماذا؟

ـ لأني كنت أحدث الكونت عنكِ، وأخبرته أنكِ ممرضة معطاءة.

ـ يسعدني مد يد المساعدة، إن كان بحاجة لها...

التفت الدكتور كارلتون نحو الكونت.

ـ هناك ممرضات كثيرات سيدي الكونت. ولكن، منهن من اتخذن من هذه المهنة باب رزق ليس أكثر، ومنهن من اتخذنها حباً بتخفيف الآلام ورغبة في العطاء. وصدقني جيسينا من بين هؤلاء.

ـ إنك محظوظ يا دكتور كارلتون... أعطاك الله ابنة كجيسينا. إني جد ممتن لها... ولكن أرجوك أن تكون صادقاً أيها الدكتور... هل عانى جدي كثيراً قبل وفاته؟

ـ جسدياً لا... أما نفسياً، فلا أنكر، أنه عانى كثيراً... تألم جدك لوفاة كريسبيان، حتى أنه لم يعد يرغب بالخروج من هذا القصر...

وكثيراً ما كان يرفض الجلوس في الحديقة... حتى لا يتذكر أياً منكما... كان دائماً يتحدث عنك ويتمنى لو أنك إلى جانبه...

ـ أعرف هذا... لكن حياة الجندية تفرض على عناصرها، ما لا يحبون... كان القائد الإنكليزي العام، يرغب بإخماد الثورة بأي شكل من الأشكال.

تدخلت جيسينا وراحت تطرح الأسئلة التي تعبر عن اهتمامها فيما يجري في الهند. تعجب الكونت هيغو لاهتمام فتاة بهذا العمر بأمور السياسة والمستعمرات البريطانية حول العالم.

ـ عرفت أنك أصبت في دلهي، أليس كذلك سيدي الكونت؟ تساءلت جيسينا.

ارتشف الكونت جرعة من كأسه، وأطلق تنهيدة من أعماق صدره.

ـ نعم يا آنستي... أصبت بشظايا قذيفة مدفعية، سقطت بالقرب مني... نقلت إلى المستشفى الميداني، وأجريت لي عدة عمليات جراحية، ولكن، ويا للأسف... فقدت بصري.

كان بودها، لو تبكي... تأثرت جداً لما سمعت... ولكن الحياء منعها عن البكاء.

ـ ولكن ما هو رأي اختصاصي طب العيون، يا سيدي؟ تساءل الدكتور.

ـ يقولون إن هناك أملاً بالشفاء... ولكن، أنا بطبعي، لا أحب

أن أُعطي آمالاً زائفة... فكلمة «يمكن» هي عملة ذات وجهين. إذ «يمكن» أن أستعيد نظري «ويمكن» ألا أستعيده.

ـ هذا الأمر يعود لك وحدك التقرير بشأنه، ولكن هل بمقدورك التكيف مع واقعك الجديد؟ أعتذر سيدي الكونت، لكنه سؤال لا بد منه.

ـ عليّ فعل ذلك...ولكن الشكر لله، توفي جدي، ولم يرني هكذا... وإلا لكانت تضاعفت آلامه.

ـ لقد أحس بمرارة قوية... لكنه عزاؤه، كان في قبولك الزواج من الآنسة فيليسي.

لم تكن جيسينا، ترغب بسماع أحد يتلفظ بهذا الإسم، فكيف إذا كان والدها؟ وماذا؟ يحدثه عن الزواج منها...؟

ـ إني أتساءل الآن يا دكتور كارلتون...

ـ عما تتساءل سيدي الكونت؟

ـ أنا، كيفت نفسي مع واقعي الجديد، ولكن هي... هل ستبقى على موقفها... لا أعتقد أنها تعلم بما أصابني.

ـ لا سيدي الكونت إنها تعلم... وأنا من أخبرها بذلك... أعتذر إن كنت قد تجاوزت الحدود المرسومة لي... ولكني كنت مجبراً... فكما تعلم أنا المكلف بتنفيذ وصية المرحوم جدك.

ـ أمر غريب... إنها أحد الورثة، إذن؟ كان يفترض أن أكون الوريث الوحيد...

ـ نعم سيدي، هذا ما كان يفترض... ولكن أتسمح لي بشرح بعض محتويات الوصية؟

ـ أكون شاكراً....

ـ جدك كان صريحاً جداً، على تأمين مستلزمات حياة ابنة صديقه، وحريصاً، بالوقت ذاته، على الحفاظ على أموال آل ريڤان، لذا فهي ترث في حال الزواج بك وإن لم ترزقا بأطفال، فينتقل الإرث إلى أحد أبناء العائلة، وتعود هي إلى ما كانت عليه، باستثناء احتفاظها بلقب الكونتيسة.

ـ هكذا إذن ليس أكثر؟

ـ نعم سيدي، إنها ترث حين تصبح فرداً من العائلة.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ تلقيت منها رسالة تعبر فيها عن حزنها وألمها لوفاة الكونت وفي الوقت ذاته تبدي تأثرها من نبله وكرمه...

ـ الآن عرفت لماذا انقطعت عن مراسلتي... قال الكونت هيغو بلهجة تهكمية ساخرة، جعلت جيسينا تتساءل «هل هو مغرم حقاً بها؟».

ـ عليك أن تأخذ بعين الإعتبار سيدي الكونت، أنها قد تكون امتنعت عن مراسلتك لاعتقادها أنك لم تعد قادراً على قراءة رسائلها.

ـ هذا صحيح، إضافة إلى عدم انتظام البريد في الهند هذه الأيام.

ـ لدي آخر رسالة استلمتها منها، هل ترغب بتلاوتها عليك سيدي الكونت؟

ماذا يفعل أبي؟ لماذا يبرر أفعالها أمجنون هو؟ قالت جيسينا لنفسها، وهي ترمق والدها يفض الرسالة ويبدأ بتلاوتها.

«سيدي الدكتور كارلتون

أكتب إليك نيابة عن موكلتي فيليسي لأشكرك على اهتمامك، ولأعتذر عن عدم تمكنها من الإجابة سريعاً. لقد آلمها ما أصاب خطيبها الكونت هيغو، لكن هذا لن يغير شيئاً، فهي ما تزال ترغب بالزواج منه، وستكون بقربه خلال شهر تشرين الثاني القادم، أي بعد أن يكون قد عاد إلى بريطانيا.

بكل احترام وتقدير

الكاتب العدل: فيليب فرونارد».

ـ إذن، وأخيراً سنتزوج. قال الكونت.

نظرت جيسينا إليه وهي تتمنى لو ترميه بالشاي الذي تشربه، كلماته هذه، أثارت غيرتها.

ـ نخب زوجتك المستقبلية، قال الدكتور كارلتون، وهو يرفع كأسه.

حتى جيسينا، رددت بصوت خافت «نخب زوجتك» وتجرعت قليلاً من الشاي. أما الكونت، فكان يحاول ملء كأسه، ورغم هذا قال «نخب زوجتي» واستطرد يقول «أعتذر منك دكتور كارلتون،

ومنكِ آنسة جيسينا، أمامي أعمال كثيرة... سنتلتقي لاحقاً ونتكلم عن مواضيع أخرى».

طوال الرحلة في طريق العودة من قصر آل ريڤان إلى المنزل المتواضع عند أطراف القرية، ظلت جيسينا صامتة. لم تتفوه، حتى بحرف واحد، ولكنها كانت تفكر بأمور كثيرة... كانت تفكر بالكونت العائد، وبتلك الفرنسية التي اسمها فيليسي.

www.rewity.com dodyadodo

الفصل الثالث

بعد أسبوع، كانت جيسينا تتناول طعام الفطور مع والدها، والحقيقة، هو وحده، من كان يأكل، أما هي، فكانت شاردة الذهن، مشتتة الأفكار... ترغب بزيارة قصر آل ريڤان، وفي الوقت ذاته، ترفض الدعوات للعشاء فيه مع الكونت... إنها تحاول الهرب... لا تريد لقاءه مجدداً «إذا كانت عيناه لا تبصران، وما تزال تشع بريقاً. فكيف لو كانت غير ذلك...؟ إنه وسيم جذاب... وما النفع؟».

من خلف زجاجة نظارته، كان الدكتور كارلتون، يحدق بابنته، مستغرباً ما هي عليه...

ـ ما بكِ يا ابنتي؟

ـ لا شيء يا والدي...

ـ أنتِ ساهية.

ـ إني أفكر بالحياة وأمورها وهمومها.. لولا مرافقتك لزيارة المرضى. لكانت حياتي وحدة موحشة.

ـ لكني وجدت ما يخرجكِ من هذه الحال.

ـ كيف؟

- وجدت لك عملاً، ولا ضرورة بعد اليوم، لمرافقتي ورؤية الناس تتألم، فتتألمين أنتِ معها.

- وأين هو هذا العمل؟

- في قصر آل ريڤان.

- أين....؟ وماذا سأعمل هناك... خادمة؟

- لا يا جيسينا، كما تعلمين، الكونت بحاجة لمن يقرأ له صحف الصباح وبعض الكتب، ووجدت أنكِ الفتاة المناسبة.

- ماذا؟

- نعم... أتفهمين معنى أن يتنازل الكونت هيغو عن كبريائه.

- كيف كان ذلك...؟ وما لي أنا بما فعل؟

- كان ذلك، باعترافه أنه غير قادر على القراءة، وسألني إن كنت أعرف أحداً يمكنه القيام بهذه المهمة.

- ولماذا اخترتني أنا؟ أما كان جديراً بك أن تسألني وأين في قصر آل ريڤان؟ لم يكن يدري، أن رفضها لدعوتيّ العشاء، لم يكن بسبب الإحساس بالتعب والإنهاك مرة، وبسبب الإحساس بدوار في الرأس ثانية؛ بل لأنها لا ترغب برؤية الكونت.

أحنت جيسينا رأسها، أتبوح لوالدها بمشاعرها وأحاسيسها؟ أتقول له، إنها معجبة بالكونت وتخشى الوقوع في حبه؟ ولهذا تحاول عدم الإلتقاء به؟

- ولماذا أختار غيرك...؟

- وأمين سره...؟ ماذا عيله أن يفعل؟... بإمكانه القيام بهذه المهمة...

- أعرف ذلك... وكذلك الكونت... لكن الكونت هيغو بمقت صوته الأجش، ويكفيه أنه مرغم لسماع صوته أثناء تلاوة الأوراق الرسمية والتباحث في الأمور القانونية. وأنتِ...

- ماذا عني أنا؟ تساءلت جيسينا.

- عدا عن صوتكِ الرخم، فإنك تجيدين القراءة بإسلوب شاعري، وتهتمين جداً بالأمور السياسية والإقتصادية.

- وماذا عنك أنت؟ من يساعدك في علاج مرضاك؟

- أنتِ... العمل في القصر هو لفترة قبل الظهر فقط، أما بعد ذلك، تساعدينني إن كنت بحاجة للمساعدة...

صمت الدكتور كارلتون قليلاً وهو يتأمل دلائل عدم الإرتياح على وجه ابنته.

- كما يمكنكِ الإستفادة من المكتبة... أنتِ تحبين المطالعة، ولا تنسي سارة التي رحبت جداً بوجودكِ هناك إلى جانبها.

صباح اليوم التالي، كانت جيسينا المرتدية معطفاً صوفياً أخضر، تتجه نحو القصر، بعربة تجرها خيول بيضاء، خصصها الكونت لتقلها يومياً، ذهاباً وإياباً... من خلف زجاج العربة كانت، تنظر إلى الأشجار المزورعة على جانبي الطريق، وكأنها تسلكه للمرة الأولى... «ماذا لو وقعت في حبه...؟

سامحك الله يا أبي... آه لو كنت تدري ما أعاني؟».

ـ إنها الآنسة جيسينا ابنة الدكتور كارلتون، يا سيدي الكونت... قال جارولد وهو يفتح باب غرفة المكتبة حيث كان الكونت يجلس قرب المدفأة، مرتدياً بذة قاتمة اللون، تعكس وسامته.

ترددت جيسينا قليلاً... لكن دعوة الكونت لها بالدخول، جعلتها تتحلى بالشجاعة وتتخلى عن التردد، وأسرعت لمصافحة يد الكونت الممدودة لها.

ـ لماذا لا ترتدين القفازات يا آنسة كارلتون... فالطقس بارد اليوم؟

أحست بقشعريرة تسرى في جسدها. لماذا هذا السؤال؟ ولماذا هذا الإهتمام؟ كل الجيران شاهدوها وهي تصعد عربة آل ريڤان، والآن، ها هو يسألها لماذا لا ترتدي قفازيها؟ أفكار غير متسلسلة ولا منطقية، راحت تتزاحم في عقلها... تمنت لو بمقدورها العودة إلى المنزل، إلى أي مكان، غير هذه الغرفة.

ـ طلبت من جارولد، أن يضع لك مقعداً مريحاً قرب النافذة، للإستفادة من نور الشمس، فهل يناسبك هذا؟

ـ لك الشكر يا سيدي الكونت... إنه فعلاً مقعد مريح قالت جيسينا وهي تجلس على المقعد وتتكيء على المنضدة الموضوعة إلى جانبه، وعليها بضعة صحف.

ـ أترغبين مشاركتي شرب الشاي؟

ـ شكراً سيدي...

ـ أتمنى أن تكوني قد تعافيت آنسة كارلتون؟

ـ ماذا؟... تعافيت؟

ـ أجل، من ذاك الدوار الذي منعكِ من تلبية دعوتي للعشاء...

ـ آه سيدي... شكراً جزيلاً... لاهتمامك... الحمد لله شفيت منه...

أيعقل أن يكون هذا الإهتمام هو مجرد اهتمام بابنة الدكتور كارلتون، أم أنه اهتمام بجيسينا الصبية الفاتنة؟

لم تسمح جيسينا لنفسها، بالإسترسال في تهيؤاتها، فبادرت إلى القول.

ـ هل أنت مستعد للسماع سيدي؟ سأبدأ بقراءة الصحيفة.

ـ كل الإستعداد آنستي.

بدأت جيسينا بقراءة تقرير عام، عن الأوضاع المتأزمة في الهند، وعن تمكن الجيش البريطاني، من استعادة بعض المواقع الإستراتيجية، التي كان الثوار قد استولوا عليها، وكانت تتوقف بين الفينة والأخرى، لتلقي نظرة على الكونت، علها تستشف مدى وقع ما تقرأ عليه.

ـ وما نفع كل هذا؟ لم أعد مهتماً بالهند ومشاكلها، يكفي ما أصابني فيها.

ـ حفاظاً على مكانتك، عليك سيدي أن تبقى على اطلاع على ما يجري في العالم...

ـ وما النفع يا آنستي؟

ـ انقطاعك عن تتبع أخبار العالم، يعني انقطاعاً عن الناس، وهكذا تكون تضع نفسك في عزلة عن الآخرين الذين قد يحادثونك في مواضيع مختلفة، وخاصةً عن الهند. إنها الشغل الشاغل لجميع البريطانيين.

ـ عجباً...

ـ و لم العجب يا سيدي؟

ـ العجب، في أنكِ ما تزالين في بداية عمر الشباب، وتبدين اهتماماً بالأمور السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وتتحلين بامتلاك الحجة المقنعة.

ـ إنها الحياة، علمتني الكثير... والفضل الأكبر، هو لمرضى والدي... كنت أراهم يتألمون، لكنهم لم يتخلوا عن الأمل في الشفاء... و لم يكفوا عن التساؤل، عما يجري في الضيعة أو المنطقة، تعلموا التعايش مع أوجاعهم.

هز الكونت رأسه، إعجاباً بما سمع... و لم يتفوه ببنت شفة... حتى ساد الغرفة صمتٌ مطبق، لم يكن يقطعه سوى صوت دقات الساعة المعلقة على الجدار، وصوت النار وهي تلتهم الحطب اليابس... استغلت جيسينا فترة الصمت هذه، لتنظر إلى ذاك الوجه المنهك، وإلى ذاك الفم المبتسم رغم المعاناة...

طال الصمت لدقائق، قطعته جيسينا «أتحب سماع الموسيقى سيدي؟».

ـ الموسيقى؟...وهل هناك من لا يحب سماعها، ولكن؟

ـ إذن سأعزف على البيانو... قاطعته جيسينا.

ـ وتعزفين على البيانو أيضاً؟

لم تجب، بل نهضت عن كرسيّها قرب النافذة، وتوجهت إلى الزاوية اليمنى للغرفة، حيث البيانو، وشرعت تعزف، ألحاناً ريفية رومانسية... كانت أناملها تداعب الأوتار بحب وحنان. نسيت جيسينا أين هي، فلم تكتفي بالعزف، بل أخذت تغني، حتى نسي الكونت نفسه، وأسند رأسه إلى يده، وراح يصغي باهتمام كلي...

تمكنت جيسينا، من نزع الأفكار السوداء من رأسه ومن زرع الإبتسامة العريضة على شفتيه، ومنحته الإسترخاء الجسدي، والإستراحة الوجدانية... نسي آلامه النفسية وتمنى لو تستمر جيسينا بالعزف والغناء.

مالت جيسينا إليه بعينيها، حدقت به، فإذ بالزمن يعود عشر سنوات إلى الوراء، وتتذكر ذاك اللقاء قرب النهر... تتذكر، مخاطرته من أجل استعادة قبعتها، ودون أن تدري، وبعفوية بريئة، أخذت تنشد أغنية تعبر عن مثل هذا اللقاء، أغنية تتحدث عن الحب من النظرة الأولى.

ما إن انتهت جيسينا، حتى صفّق الكونت تعبيراً عن اعجابه وتقديره.

ـ تملكين صوتاً يبعث الدفء في النفوس الباردة، صوتاً يتغلغل في أعماق النفس البشرية، ويزرع الإبتسامات على شفاه الحزانى...

تلعثمت جيسينا، وهي تقول «شكراً على هذا الإطراء» وتساءلت بينها وبين نفسها «لماذا قال هذا؟ لماذا يجعلني أشعر وكأنه يهتم بي... قريباً ستأتي خطيبته التي ما رأت له وجهاً، وهو كذلك. رباه امنحني القدرة على التخلص من أحاسيسي ومشاعري».

– ومن قال إنه إطراء؟ صدقيني، وأني لعلى يقين أن وجودكِ إلى جانبي هو مدعاة سروري... ولا شك ستكونين خير رفيقة...

«رفيقة؟» تساءلت جيسينا سراً وتابعت «ولماذا لا أكون صديقة أو حبيبة؟».

– يسعدني ذلك سيدي الكونت... وثق، أني سأسعى جاهدة، لإعادة الحياة إلى هذا القصر الذي كان غارقاً في الحزن.

وراحت الأيام تمر وكذلك الأسابيع، تحولت خلالها أشياء كثيرة. تغير نمط حياة الكونت، وازدادت سعادة جيسينا، لم تعد تقرأ الصحف وحسب، بل الروايات وقصائد كبار الشعراء، وهكذا امتزج الغناء بالكلام الموزون المقفى، وعاد الكونت إلى الإهتمام بالأمور العامة...

كانت تصحبه في نزهاته حول القصر، في الحدائق المحيطة به، وعبر الممرات بين أشجار من مختلف الأنواع من السنديان والحور والسرو، كانت تجالسه على المقاعد في الحديقة، تصف له، كل ما تراه عيناها، حتى أصبح قادراً على معرفة نوع الوردة هذه، أو تلك لمجرد لمس أوراقها أو جذعها... كانت تصف له الغيوم، في ترحالها من مكان إلى آخر، مدفوعة بقوة الريح. وإذا كانت الحرب في الهند

أفقدته البصر، فجيسينا ابنة الثامنة عشر ربيعاً أعادته له، صارت هي عيناه، وبعد أن كانت «خير رفيقة» أصبحت «صديقته الصغيرة». «ولكن لماذا الصغيرة؟ أصبحتُ راشدة، شفتاي ترتجفان شوقاً لقبلة منه، ويداي ترتعشان حين تلامس يديه... لم أعد صغيرة...»

قرب ضفة النهر، حيث طارت القبعة عن رأسها، كانت تصف له أوزة بيضاء... لكن الذكرى، انعكست عليها، فارتجف صوتها «أتسأله إن كان ما يزال يذكر ذلك؟.... وماذا لو سخر منها؟ ماذا لو قال «تحدثينني عن قبعة، ومنذ متى؟ منذ سنوات عشر؟».

أحس الكونت بارتجاف صوتها.

– ما بكِ آنسة جيسينا، أهناك ما يزعج؟

– لا يا سيدي.

– إذن لماذا هذا التبدل في نبرة صوتكِ؟ أتخفين شيئاً يا صديقتي الصغيرة؟

– أبداً... إنها مجرد ذكرى قديمة...

– ذكرى؟... أين... هنا في هذا المكان... هاتي حدثيني عنها.

احتارت جيسينا، ماذا تقول. أتقول الحقيقة؟

– إنها ذكرى قبعة...

ارتسمت على شفتي الكونت ابتسامة عريضة.

– آه... قبعة زرقاء ذات شريط مخملي كانت عائمة على سطح الماء... أليس كذلك؟

ـ نعم سيدي الكونت... إنها هي...

ـ وهي أجمل قبعة عندك؟

تنهدت جيسينا «إنه ما يزال يذكر».

ـ أما تزال تذكر يا سيدي الكونت؟

ـ وكيف لي أن أنسى تلك الفتاة ذات اللسان السليط... وفي الوقت ذاته، أتعجب لنسياني اسمها «جيسينا ابنة الدكتور كارلتون» إنها الحرب، لم تفقدني بصري وحسب، بل، محت أشياء كثيرة من ذاكرتي،... إني جد آسف.

مد يده، ووضعها على كتفها، أحست بالنار تسري في جسدها فتمنت لو يأخذها بين ذراعيه، لو يضمها إلى صدره.

ـ إذن هذه أنتِ يا صاحبة الصوت الرخيم... شعركِ أشقر مائل إلى الإحمرار، عيناكِ خضراوان تشعان بريقاً كضوء الصباح.

ـ لكني كبرت، وتغيرت كثيراً....

ـ أحقاً؟ ألم تعودي كما وصفتكِ...؟ تغيّر لون شعرك وكذلك لون عينيكِ؟

ـ لا... إنما لم أعد طفلة...

أزاح الكونت يده عن كتفها، وابتعد عنها قليلاً «إنها لم تعد طفلة». حتى هو أحس بالنار تسري في جسده.

ـ بكل تأكيد... ما عدتِ طفلة... كان ذلك منذ عشر سنوات ونيف... لا شك أنتِ اليوم صبية مكتملة الأنوثة...

صمت قليلاً قبل أن يتابع «يبدو أن الطقس بدأ يتحول إلى البرودة... لنعد للقصر يا صديقتي الصغيرة...».

ـ حسناً لك ما تريد سيدي.

أمسكت يده وعادا معاً، فيما الأوزات اختفين خلف قضبان القصب، وكأنها تريد القول «ما من أحد يراكما».

كان ليل جيسينا طويلاً، هي في سريرها تتقلب، والسماء تمطر، تبرق وترعد، وأفكارها لا تهدأ على حال... «إني جد آسف. شعرك أشقر طويل مائل إلى الإحمرار» إنه ما يزال يذكر... ولكن كيف نسي الإسم؟ أفعلاً هي الحرب محت أشياء كثيرة من ذاكرته؟

خبر انتشار وباء الكوليرا في أدنبرغ، احتل الصفحات الأولى... وهكذا تحول صباح اليوم التالي، إلى تساؤلات حزينة... كانت ترغب أن تستكمل ما بدأته أمس عند ضفة النهر، لكن انتشار وباء الكوليرا، وإن في مدينة بعيدة، أقلق بال الكونت... وهو الذي فقد أخاه بهذا المرض...

ـ آمل ألا تنتقل عدواه إلى هنا يا صديقتي الصغيرة...

ـ لا أذكر سيدي أن أحداً أصيب بهذا الوباء عندنا.

ـ ولكن ماذا عن العائلات التي تقطن الجوار؟

ابتسمت جيسينا... «إنه مهتم بالآخرين... لقد خرج من عزلته».

ـ إنهم بشر بسطاء جداً، طيبون، محبون، يتعبون ويشقون من

www.rewity.com dodyadodo

أجل لقمة عيشهم، لكنهم يعيشون بسعادة. إنهم يُسعدون أنفسهم بأنفسهم.

كذلك حدّثته عن عاداتهم وتقاليدهم، عن أفراحهم ومآتمهم، عن حبهم للأرض. بدوره، حدّثها عن عادات وتقاليد الهنود، رجالهم سمر ونساؤهم جميلات وهن يرتدين الساري.

أحست بشيء من الغيرة، وسألته عن النساء الإنكليزيات اللواتي يعشن هناك، في الطرف الآخر من العالم.

أدرك الكونت هيغو، ما ترمي إليه من سؤالها.

ـ الحقيقة، كنا، نحن الضباط خاصة، فرسان الحفلات، حفلات الرقص والغناء، لكننا كنا لا نختلط إلا مع زوجات الضباط أو بناتهم، أما بالنسبة لي، فقد عشت في عزلة عن الآخرين، وبعد خطوبتي خاصة.

تعجبت جيسينا مما سمعت... كيف تمكنت تلك الأوروبية من التأثير عليه، وهو لم يرها قط. «لا شك أنها كانت تكتب كلاماً ساحراً... ولا شك أيضاً، أنها تجيد المكر والخداع، وأين لي أنا الفتاة القروية البريئة البعيدة عن أساليب اصطياد الرجال، كل البعد، أن أنافسها على كسب وده ونيل حبه؟».

بعد أيام، أمضاها الدكتور كارلتون، يراجع الكتب ويقرأ الأبحاث عن مرض الكوليرا، وجد نفسه مضطراً لتبلبية دعوة أستاذه في جامعة أدنبرغ لمساعدته في مكافحة هذا الوباء. ولكن ماذا عن جيسينا؟

فوجيء الكونت بمرافقة الدكتور لابنته، لم يحدث ذلك من قبل أبداً.

ـ أعتذر سيدي للمجيء دون موعد مسبق.

ـ لا عليك دكتور كارلتون، فأنت مرحبٌ بك ساعة تشاء.

ـ يبدو أن حديثاً خاصاً سيكون بينكما، قالت جيسينا، موجهة كلامها لوالدها، ومضت «أستأذن... سأدعكما معاً».

ـ لا يا ابنتي... أنتِ معنية بالموضوع الذي سأناقشه مع صاحب السمو.

ـ ما الأمر يا والدي؟

ـ إني مضطر للذهاب إلى أدنبيرغ، لمساعدة أستاذي في مكافحة مرض الملاريا، وفي الوقت ذاته، أكتسب خبرة جديدة. لكنني خائفٌ عليكِ، لا أريدك معي في هذه الرحلة التي قد تعرض حياتكِ للخطر.

تنهد الكونت «أتمنى أن يتوصل الأطباء لإيجاد اللقاح الفعال المضاد لمثل هذا الوباء».

ـ صدقني سيدي الكونت، هذه هي غايتي من هذه المهمة لربما أساهم في اكتشاف مثل هذا اللقاح، على كلٍ لنعد إلى الموضوع الذي هو سبب زيارتي هذه.

ـ إنه يتعلق بجيسينا، على ما فهمت. قال الكونت

ـ نعم إنه لكذلك...

- ولكن ما علاقة الكونت يا أبي؟ تساءلت جيسينا.

- علاقته يا ابنتي، أني لا أريدكِ أن تبقي وحيدة في المنزل.

- نعم وماذا أيضاً؟

- جئت اليوم، أسأله، إمكانية استضافتكِ خلال فترة غيابي.

- أتريدني أن أسكن هنا، في القصر يا والدي؟

- هذا متوقف، على صاحب السمو، قد يتكرم ويقبل وقد يرفض.

تنهدت جيسينا من أعماق صدرها. إنها كالهارب من الموت، والموت يتبعه... تحاول الهرب من سحر الكونت، لكن الظروف، تعيدها إلى المكان الذي تحاول الهرب منه، لو لم يكن مرتبطاً، بتلك اللعينة، فيليسي، لما كان الأمر صعباً، ولما فقدت أمل استمالته إليها... لكنه إنسان وفيّ، مخلص، حتى في الهند، كان وفياً، فكيف الآن، وهو ينتظر وصولها قريباً؟

إلتفت الكونت إلى حيث يجلس الدكتور كارلتون، والإبتسامة على شفتيه.

- إنها على الرحب والسعة يا دكتور كارلتون... ولا يجوز أن تبقى وحيدة، في المنزل... ولا ريب، أن هذا الخبر سيدخل الفرح والسرور إلى قلب سارة.

«إلى قلب سارة؟» قالت جيسينا لنفسها «وماذا عنك أنت، ألن تكون مسروراً؟».

- شكراً سيدي الكونت... هكذا أذهب مرتاح البال، مطمئناً على ابنتي... إني جد ممتن لك. قال الدكتور وهو يقف مودعاً.

كان الموقف صعباً... انهمرت الدموع من عيني جيسينا، لأول مرة، ستفارق والدها... كم ستشتاق إليه؟... كم ستفتقده؟.

أمر الكونت، أن تخصص لجيسينا غرفة خاصة، غرفة تليق بمقام الزائرة الجديدة القديمة... فكانت لها غرفة مجهزة بسرير وثير، تلفه أغطية صوفية زهرية اللون... ومرآة مؤطرة بالبرونز، معلقة على الحائط، وفي الزاوية مدفأة، أحست جيسينا بالفرق الكبير، بين غرفتها هذه، وغرفتها في المنزل. إنها، هنا، ضيفة مدللة، كل صباح، تأتي نانسي لإيقاظها، وإعداد الماء الساخن للإستحمام، في مغطس خاص، مفصول عن غرفة النوم بستار من القماش العاجي اللون... وما إن تنتهي من الإستحمام، حتى يكون الفطور جاهزاً، على المنضدة المصنوعة من خشب السنديان، والموضوعة قرب السرير... شاي وبسكويت مغطى بالشوكولا، وكوب حليب طازج ساخن... وفوق هذا كله، كانت تلك الإبتسامة على شفتي نانسي.

- إنك تدللينني كثيراً يا نانسي، أنا لست من آل ريڤان، أنا مجرد ضيفة مؤقتة هنا.

- أعرف هذا... لكنها أوامر سيدي الكونت... ومن ثم، استغلي هذه الفترة، وتنعمي بالحياة... فعاجلاً أم آجلاً. ستعودين إلى ذاك المنزل المتواضع.

احتارت جيسينا. لم تجد تفسيراً مقنعاً لكرم الكونت... «لكنها

أوامر سيدي الكونت» فما معنى هذا؟ تساؤلات وتساؤولات، لكنها لم تسمح لنفسها أن تحلم بكسب ود صاحب القصر... ولكن...؟

يوماً بعد يوم، تعودت جيسينا على نمط الحياة الجديدة، في الصباح، تقرأ الصحف للكونت، تعزف له بعض الموسيقى، أو تقرأ في كتاب أدبي، أو في ديوان شعر... وعند الظهر، تصعد إلى غرفتها تتناول الطعام، أو القراءة، ومراجعة دروسها في اللغتين الفرنسية واللاتينية، دون أن تنسى زيارة سارا التي، بالفعل كانت جد سعيدة بوجودها إلى جانبها، وأحياناً، كانت تزور بيوت الفلاحين القاطنين قرب القصر، حاملة لهم، بقايا الطعام عن موائد آل ريڤان.

أكثر اللحظات تأثيراً، كانت تلك تمضيها تتأمل اللوحات الفنية المعلقة على الجدران، إن في صالات الإستقبال، أو في ممرات القصر.

حياة الكونت مملة رتيبة، وكأنها مبرمجة مسبقاً. في الصباح سماع جيسينا تقرأ الصحف، وبعدها، تعزف له بعض المقطوعات الموسيقية، وحين يهبط الليل، يتناول عشاءه وحيداً. لا يشاطره المائدة إلا جارولد لمساعدته. لكن جيسينا، جعلته، يكسر هذه العزلة، وشجعته على دعوة، بعض الأصدقاء أو الأقرباء إلى العشاء من حين لآخر. وما من وليمة، إلا وكانت جيسينا، تدعى إليها، فتشارك الضيوف الجلوس إلى المائدة، تسمعهم، يتحدثون في السياسة والإقتصاد، وعن أوضاع المستعمرات، بفرح وغبطة، كانت تستمع لمناقشاتهم هذه، التي كانت تعتبرها مفيدة جداً، إذ،

توسع أفق معرفتها وتزيد من ثقافتها. وتشبع ـ نوعاً ما ـ رغبتها، في الإطلاع على كل ما يجري في العالم... وإن كانت الكتب، تمنحها المعرفة عن الماضي، فالأحاديث هذه، تمنحها المعرفة عما يجري حالياً. ولكن السؤال الأهم كان «لماذا يطلب مني حضور مثل هذه الولائم؟ هل يقدمني لمجتمعه، لأصدقائه بطريقة غير مباشرة، أم لسبب آخر؟ ولكن ماذا عن فيليسي، إنه يترقب عودتها».

بعد ظهر يوم مشمس، كانت جيسينا ترافق الكونت وهو يجول في أرجاء حديقة القصر الخلفية، وتصف له كل ما تقع عليه عيناها، إنما لفت انتباهها باب كبير من خشب السنديان، فتساءلت إلى أين يؤدي؟ وجاءها الجواب سريعاً، إلى القسم الذي لا يدخله أحد إلا أفراد عائلة ريڤان والمقربين جداً...

ـ أترغبين بالدخول إليه؟

ـ ولكن، أما قلت أن لا أحد يدخله إلا أفراد عائلة ريڤان والمقربون منهم؟

سؤال بريء وخبيث في آن... هكذا أرادته إبنة الدكتور كارلتون.

ـ وأنا....؟ أولست من آل ريڤان يا صديقتي الصغيرة؟

«صديقتي الصغيرة... صديقتي الصغيرة... متى سيدرك أني لم أعد كذلك؟ أو لم يقل لا شك أصبحتِ الآن صبية مكتملة الأنوثة، فكيف ما أزال صغيرة؟».

ـ بلى... وأنا؟

ـ أولستِ من القاطنين في هذا القصر؟... تعالي... تعالي.

قال هذا، وتلمس الباب وفتحه، فسمع له صرير قوي... منذ زمن لم يفتح.

انشق الباب، فإذا بها أمام ممر طويل، على جدرانه، صور أشخاص معلقة...«لاشك إنها صور الآباء والأجداد» قالت جيسينا، لكنها توقفت أمام صورة امرأة شابة وتساءلت «من تكون هذه السيدة؟».

ضحك الكونت «السيدات كثيرات هنا، عليكِ وصفها، لأتذكر من تكون...أم أنكِ نسيتِ؟».

ـ نسيت ماذا يا سيدي الكونت؟

ـ أني لا أبصر...

احمرت وجنتاها خجلاً «عفوك سيدي...إنها امرأة بنية العينين، شعرها أسود حالك، ترتدي فستاناً من الحرير ذا لون أحمر، يزين عنقها الطويل عقد من الألماس».

ـ آه، إنها جدتي، التي أمضت حياتها في هذا الجناح، وبعد وفاتها، أمر جدي بإقفاله. وأبقى كل شيء على حاله، كما كان يوم كانت ما تزال حية... كان يحبها كثيراً...

ـ كانت امرأة جميلة جداً، وتحسن اختيار مجوهراتها...

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ من العقد المتدلي على صدرها.

ـ هل ترغبين برؤيته؟

ـ أما زلتم تحتفظون به؟ تساءلت جيسينا.

ـ نعم... إنه واحد من مجموعة مجوهرات العائلة التي نتوارثها جيلاً عن جيل...

رغم أنه، لم يدخل هذا الجناح، إلا مرات قليلة، ومنذ زمن، فما يزال الكونت يتذكر كل شيء فيه، حتى الدرج المؤدي إلى البرج الصغير، حيث غرفة جدته الخاصة، التي ما إن دخلتها جيسينا، حتى انبهرت عيناها مما ترى... ستائر حرير عاجية اللون لا تغطي النوافذ وحسب، بل والجدران أيضاً. وتضفي على الغرفة مسحة رومانسية... سرير ضخم وثير، مرايا مربعة ومستطيلة تزيد من رومانسية الغرفة وجمالها.

تلمس الكونت طريقه إلى طاولة خشبية عند إحدى الزوايا ومد يده نحو علبة كبيرة مصنوعة من الجلد الأصلي الأزرق اللون. ما إن فتحها، حتى انبهرت عينا جيسينا لما رأت من مجوهرات فأطلقت صيحة تعجب... «إنه العقد ذاته».

ـ وهل يعجبك؟

ـ فعلاً إنه عقد رائع... جميل ونادر...

ـ ضعيه حول عنقك... جربيه...

ـ ماذا؟...

ـ هيا... لا ترددي... أنا أطلب منكِ ذلك.

زينت جيسينا عنقها بالعقد، ووقفت أمام المرآة، تتمايل بقامتها الممشوقة، وتلوي شفتيها إعجاباً «آه لو بمقدوره أن يرى؟».

بدت جيسينا فاتنة ساحرة... استدارت نحو الكونت وكأنها ترغب أن تلفت نظره...

ـ أجميل هو؟ تساءل الكونت وهو يطلق تنهيدة حارة...

ـ لست أدري ما أقول سيدي الكونت.

ـ هناك تقليد عائلي متوارث، أن كل الجواهر تنتقل بالإرث من جيل لآخر ولزوجة الإبن البكر...

أدركت جيسينا، أن هذه المجوهرات، ستكون لفيليسي. وكذلك هذه الغرفة؛ بأثاثها الفخم الذي يندر وجود مثيل له. وحتى هذا العقد سيكون من نصيبها...

نزعت جيسينا العقد عن عنقها والغضب يسيطر عليها...إن فكرة وجود فيليسي، أثارت حقدها، إنها، أي فيليسي، تنتزع منها إنساناً أحبته، وتسرق أحلامها.

ـ أتسمح بالعودة إلى غرفتي سيدي الكونت؟

ـ لكِ ما تريدين... ولكن ما السبب؟ أما أعجبتكِ هذه الغرفة؟

«أما أعجبتكِ هذه الغرفة، وما الفرق إن كان جوابي بنعم أو بلا... في النهاية، ستكون غرفة تلك الأوروبية اللعينة» تنهدت جيسينا مرة واثنتين وثلاثاً....

ـ ما الأمر يا جيسينا؟

ـ لا شيء... أشعر بالتعب والإرهاق ليس أكثر سيدي الكونت.

في غرفتها، ألقت جسدها على كرسي قرب المدفأة. خيم صمت مطبق، لا صوت يسمع، إلا صوت النار تأكل الحطب، لم تكن تدري ماذا تفعل؟ كلما طالت إقامتها في هذا القصر، كلما ازداد تعلقها بالكونت، وهو لا يهتم بها كأنثى، بل كقارئة ليس أكثر، كموظفة ترفه عنه... أما اهتمامه بفيليسي، فهو يختلف كل الاختلاف، إنه يهتم بها كأنثى...

احتارت ماذا تفعل... نهضت من مكانها قرب المدفأة، وتوجهت نحو النافذة، وسمحت لعينيها التمتع برؤية ورود وأزهار الحديقة التي أدخلت بعضاً من الطمأنينة إلى صدرها، لكن عربة تجرها أربعة خيول، توقفت أما مدخل القصر، ونزلت منها صبية جميلة... أدركت جيسينا أنها فيليسي... ولكن من هذا الغريب الذي يرافقها...؟ ولماذا هذا الإهتمام من الخدم بها؟ أبناءً لأوامر الكونت، أم إدراكاً منهم، أنها قريباً ستصبح سيدة هذا القصر؟

www.rewity.com dodyadodo

الفصل الرابع

لم تتخيل جيسينا، أن لقاء فيليسي مع خطيبها الكونت هيغو، سيكون بارداً، كلقاء أي غريبين. لم تسرع لمعانقته، أو حتى لإبداء سرورها بلقائه. إنما الذي أثار غيرتها، هو ذاك الجمال الذي تتمتع فيه. شعر أصهب، معتنى بتسريحه، عينان بلون العنبر الذهبي، وجه مستدير، قامة ممشوقة، وفم شهواني.

حدقت جيسينا جيداً بوجه فيليسي، فأدركت سبب وقوع المرحوم كريسبيان في حبها؛ ولكن الكونت هيغو، لم يرَ هذا الجمال، ولن يراه... إنه بحاجة لحنانها، لرعايتها، لاهتمامها به، وهذا ما بدا، أنه لن يناله.

تقدمت فيليسي من الكونت، وبصوت خافت فيه الكثير من التصنع وقالت «لا شك أنت هيغو؟».

مد الكونت يده مرحباً بها... رفع يد فيليسي إلى شفتيه وطبع قبلة عليها «أهلاً بك في قصر آل ريڤان... أتمنى ألا تكوني متعبة، فالرحلة طويلة».

جاء ردها جافاً مزعجاً «وأخيراً ها نحن هنا... إسمح لي أن أقدم لك، مدير أعمالي ووكيلي السيد فرناند».

ـ أهلاً به أيضاً. قال الكونت.

وحانت من فيليسي نظرة نحو جيسينا، فامتعضت لوجدها... «إنها جميلة فمن تكون هذه؟ لا يبدو عليها منظر الخدم».

ـ هيغو من تكون هذه الفتاة؟ تساءلت فيليسي وهي تشير بيدها إلى جيسينا، متجاهلة، إن عمداً، أو عن غير عمد، أن الكونت لا يرى، وأنه ليس بمقدوره أن يجيب. فأسرعت جيسينا إلى القول «أنا جيسينا كارلتون».

ـ آه... تقصدين جيسينا؟ قال الكونت «إنها الآنسة كارلتون... تقرأ لي صحف الصباح، وبعض القصائد التي أحب سماعها، وهي الآن تقيم هنا، في القصر».

ـ ولماذا تقيم هنا؟

ـ بسبب غياب والدها الدكتور كارلتون، الذي هو طبيب العائلة... ومن ثم فهي رفيقتي اليومية.

ـ أهذا كل شيء؟ قالت فيليسي.

ـ نعم... إنها عيناي التي أرى العالم الخارجي من خلالها، عدا عن القراءة، فهي تصف لي الأشياء التي في الحديقة، الشجر، الورود، والأزهار... إنها صديقتي الصغيرة.

أحست جيسينا، أن الكونت يتكلم عنها، وكأنه يتكلم عن إنسان عزيز على قلبه... إن ما قاله، ليس موجهاً لأي إنسان، بل لخطيبته... لزوجته المستقبلية.

ـ آه... هكذا إذن؟... علقت فيليسي وأمسكت بذراع الكونت ودخلا القصر، وخلفهما سارت جيسينا، وإلى جانبها السيد فرناند الذي رمقها بنظرة استغراب واحتقار «هل أنتِ صديقته منذ زمن طويل؟».

ـ أنا... لا... ولكن أبي طبيب العائلة منذ زمن طويل.

كلمات قليلة جداً، تبادلتها جيسينا مع السيد فرناند، جعلتها تقتنع، كل الإقتناع، أنه ماكر وخبيث، ويخفي نوايا سيئة.

يوماً بعد يوم، أخذت حياة القصر، تتبدل وتتغير. وكذلك حياة جيسينا التي انتقلت من غرفتها إلى غرفة أخرى، أقل فخامة .. فقد القصر، ذاك الهدوء الذي كان يخيم عليه، والإلفة التي كانت تجمع بين صاحبه والعاملين فيه... صار الخدم، في حركة دائمة لتلبية طلبات فيليسي، التي لا عد لها ولا حصر... صار عليهم الإهتمام بتوضيب ثيابها يومياً، إن لم نقل مرات، وعليهم أيضاً الإنتباه إلى النار في المدفأة، إن كان الطقس بارداً أم لا...

خصص الكونت خادمتين لخطيبته. واحدة لتأمين المياه الساخنة مرتين يومياً للإستحمام، وتدليك ظهر هذه الفتاة الفرنسية، إبنة المركيز المفلس، الذي انتهت حياته في السجن، والثانية لمساعدتها في ارتداء ثيابها... والويل للجميع، إن دقت الساعة معلنة السادسة مساءً، ولم تكن زجاجة الشمبانيا، مع كؤوس الكريستال جاهزة في غرفتها... هذا إضافة إلى.. وإلى... وإلى... إلى ما يخطر على بالها فجأة، وعلى الجميع تأمينه دون تأخر.

بدا واضحاً، أنها تريد الإنتقام من ماضيها التي عانت من حرمانه وقساوته، تريد الإنتقام من الفقر الذي عاشته، قبل أن تطأ قدمها عتبة قصر آل ريڤان... وبدا واضحاً، أن قبولها بالكونت الضرير، خطيباً لها، يرمي إلى أشياء أبعد بكثير، يرمي إلى الإستيلاء على ثروة آل ريڤان.

كان صدى ضحكاتها التي تطلقها لسبب أو بدون سبب، يتردد في أرجاء القصر، ويثير اشمئزاز الخدم ويوتر أعصابهم... لم يسبق لهم، أن تعودوا على مثل هذه الحياة... كانوا ينعمون بالهدوء، وها هم اليوم، لا يعرفون إلا الصخب... فكثرت تساؤلاتهم... وأكثر ما كان يثير تساؤلاتهم، هو تصرف السيد فرناند، الدائم التجوال في القصر، وممراته، وغرفه، كان يحاول ألا يلفت الأنظار إلى ما يقوم به ويفعله. لكن تصرفاته المريبة، جعلت الجميع يدركون، أن وكيل الخطيبة، يقوم، بإجراء جردة لمحتويات القصر. حتى كؤوس الكريستال وصحون البورسلين وفناجين الشاي والقهوة.

ـ أقسم، انه كان يقوم بتعداد الأدوات الفضية... قالت نانسي لجيسينا التي كانت تتناول العشاء معها في غرفة الطعام... إذ لم يعد للخدم وقت، لإحضار الطعام لها إلى غرفتها كما كانوا يفعلون...

ـ أيعقل هذا يا نانسي؟ إنه لأمر رهيب.

ـ والأنكى يا آنسة جيسينا، أنها تطلب منه ذلك... أنا متأكدة، من أنها تريد محو الماضي... كل الماضي، بما فيه فترة خطوبتها من كريسبيان... لقد رأيتها، تمزق رسائلها له ومن ثم تجعلها طعماً للنار في المدفأة... نعم... نعم رأيتها تفعل ذلك....

ـ لا تلومي إنسانة، ما عرفت الحنان، إن من الأم أو من الأب يا نانسي.

ـ ماذا؟... ماذا تقولين؟ إنها متعجرفة، تدعى الرقي، لماذا كل هذه الثياب الغالية الثمن، والتي لا تليق بها... فما من يوم يمر إلا ويكون لها طلب... إنها لا تأكل إلا الكافيار والفطر، وما شابه...

ـ تعرفين، أنها فرنسية، تحب التأنف والبذخ، وسموه لا يرفض لها طلباً... يعاملها باحترام كلي، يمنحها الحب والحنان...

ـ ولكن، رغم كل هذا، فهي تبدو ممتعضة من كونها خطيبة إنسان ضرير.

ـ أعرف هذا... ولم أكن أعرف أن هناك من يشاطرني هذا الرأي... قالت جيسينا وهي تطلق تنهيدة، أثارت تساؤلات نانسي...

ـ ولماذا تتنهدين هكذا؟

ـ لماذا؟... إنها دائمة التأفف والتذمر، حركاتها مزعجة، لا تمد يدها للكونت لمساعدته في الوصول إلى حيث يريد، بل تتركه يتلمس طريقه، وهي تنظر إليه بسخرية وليس بإشفاق.

بالفعل، لم تكن فيليسي تهتم لأمر الكونت هيغو. فحتى على المائدة، لا تضع له المحرمة أمامه، ولا تكترث إن فرغت كأسه، أو صحنه، بل الخدم هم الذين يتنبهون إلى مثل هذه الأشياء. كانت تدعي حب معاشرة النبلاء وعلية القوم، لكنها ترفض مرافقة الكونت في زياراته لهؤلاء، حتى أنها ترفض التنزه معه في الحدائق

المحيطة بالقصر، بحجة أنها تكره السير على الأقدام، ولأنها تتذمر، بإستمرار، من عدم وجود محلات راقية في الجوار... بدا واضحاً، أن الكونت لا يعني لها شيئاً، وكل اهتمامها منصب على السيد فرناند، حتى على المائدة، بدلاً من التكلم مع خطيبها، تسترسل بالحديث مع السيد فرناند، وباللغة الفرنسية، أي بلغة لا أحد في القصر يتقنها، وإن أبدى الكونت ملاحظة ما، تبتسم بسخرية... ولماذا لا؟ فهو لا يرى... وتمرر يدها فوق يده لبرهة، ثم تعود للتهامس مع مدير أعمالها، الأمر الذي جعل العاملين في القصر يتهامسون، عن العلاقة التي تربط هذين الزائرين اللذين، كثيراً ما شاهدتهما جيسينا يحصيان الفضيات والقطع المصنوعة من البورسلين، ويبرران وقوفهما أمام الخزائن التي تحتوي هذه القطع، بإبداء الإعجاب بها.

حاولت جيسينا التقرب من فيليسي، لكن هذه الأخيرة، كانت مصممة على إذلالها، والنظر إليها، لا كضيفة في القصر، تقدم خدمات للكونت، بل على أنها مجرد خادمة عادية.

حتى الكونت، لم يعد يتعامل مع جيسينا، كما في السابق، فلم يعد يناديها «صديقتي الصغيرة» بل «يا آنسة كارلتون»، متناسياً، كم أدخلت السرور إلى قلبه، ليس بقراءة الصحف، بل بالعزف على البيانو والغناء أحياناً، وبقراءة القصائد، ومناقشة مواضيع متعددة ومرافقته في نزهاته حول القصر، ومشاركته المقعد الواحد في الحديقة، أو عند ضفاف النهر... تناسى أنه قدمها لخطيبته يوم قدومها، على «أنها عيناه التي يرى من خلالها، وأنها صديقته

الصغيرة مسكين هو الكونت، أصبح أعمى البصيرة والبصر...»
ولكن، هل من تجرأ وأخبره عما يجري، عن تصرفات خطيبته التي تثير الريبة والشك، أو عن تصرفات وكيلها السيد فرناند؟ لم يفعل أحد ذلك. حتى جيسينا...

ذات يوم، كانت جيسينا، ترافق الكونت في نزهة صباحية، قرب ضفة النهر، بين أشجار الحور والسرو، فإذ بالسيد فرناند، يبرز فجأة، بين الأشجار، وما إن رآهما، حتى أصيب بالإرتباك، تعثر في مشيته، حتى كاد يسقط أرضاً، اضطر إلى إلقاء التحية، فيما عيناه، تنظران إلى السماء، متحاشياً نظرات جيسينا التي فيها الكثير من التساؤل «ترى... من أين أتى... ولكن ماذا يفعل هنا ولماذا هو هنا؟».

لم يكن يدري كيف يختفي... تصرف وكأنه مجرم ضبط في الجرم المشهود. لا الكونت سأل عمن ألقى التحية، ولا جيسينا أخبرته بما رأت، ولا أفصحت عن ظنونها وشكوكها. لكنها، مثلها، مثل غيرها، من الذين المقيمين في قصر آل ريڤان، دائمة التساؤل، عن حقيقة نوايا فيليسي ووكيلها، وكذلك عن العلاقة التي تربطهما. بدا واضحاً، أنها ليست علاقة موكل بوكيل، إنها أبعد مدى، ولكن؟....

صباح اليوم التالي، فوجئت جيسينا، بوجود فيليسي في غرفة المكتبة، تجلس إلى جانب المدفأة، قبالة الكونت.

ـ ما رأيكِ جيسينا، لو ساعدتني على التمكن من اتقان اللغة الإنكليزية؟

انتبهت جيسينا، إلى عدم القول «آنسة جيسينا» وتأكدت أن هذا ليس دليل تودد أو تقرب منها، بل هو نوع من أنواع الإذلال والإحتقار؛ وأدركت أن رغبة هذه القادمة من أوروبا، من تعلم الإنكليزية، تهدف إلى إبعادها عن الكونت، حتى هذه اللحظات، لحظات قراءة الصحف، وبعض القصائد، تريد فيليسي أن تحرمها منها.

ـ لا أعتقد أن الآنسة جيسينا تمانع في ذلك... قال الكونت، أليس كذلك يا صديقتي الصغيرة؟

«يا صديقتي الصغيرة» جملة أثلجت قلب جيسينا، لقد اشتاقت لسماعها، في الوقت ذاته أزعجت فيليسي، التي رمقت خطيبها بنظرة استغراب.

ـ بالطبع لا أمانع... قالت جيسينا... هكذا أكون أساهم في زيادة التقارب والتفاهم بينكما.

كالعادة، جلست جيسينا قرب النافذة، وراحت تقرأ ما ورد في الصحف من أخبار محلية وعالمية، وتحليلات وتعليقات، ومن ثم بدأت تقرأ قصيدة اختارها.. الكونت لحظات وأخذت فيليسي تبدي تذمرها، وتنتاءب بصوت مرتفع ومزعج. لم تعر جيسينا اهتماماً لما يبدر عن فيليسي، لكن الكونت مال برأسه نحو خطيبته.

ـ هل أنتِ متعبة يا حبيبتي؟

ـ لا... لكني مللت من سماع هذه القصيدة...

بهدوء واتزان... أزاحت جيسينا ديوان اشعر من أمامها.

ـ أترغبين سماع قصيدة لشاعر آخر؟ لست أدري ما ترغبين سماعه. وأي نوع من الأدب تحبين.

ـ ماذا... أي نوع من الأدب؟... قالت فيليسي، دون أن ترفع عينيها نحو جيسينا، بل استمرت في تقليم أظافرها.

ـ نعم آنسة فيليسي، يمكنك اختيار أي كتاب، فالمكتبة ملأى بدواوين الشعر وكتب الأدب.

كان إحساس جيسينا، بأنها مراقبة في كل خطوة من خطواتها، يزداد يوماً بعد يوم... لكنها في الوقت ذاته، تتساءل «ماذا يريد مني هذا المحامي اللعين، الذي يتصرف وكأنه مالك هذا القصر؟» وتأكد إحساسها، حين تقدم السيد فرناند منها، وهي تتأمل إحدى اللوحات المعلقة عند أسفل الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني.

ـ هل هناك ما يزعجك يا آنسة كارلتون؟

التفتت جيسينا، فإذ بابتسامة ماكرة، ترتسم على شفتيه.

ـ لا شيء مطلقاً... إنما قلقة بعض الشيء.

ـ ومما؟

ـ تلقيت رسالة من أبي، يعلمني فيها، أنه لن يعود قريباً.

ـ أهذا كل شيء؟... أعتقد أن سبب هذا القلق، هو أمر آخر... الحب مثلاً...

رمقته بنظرة احتقار، وحاولت الإبتعاد عنه، لكنه أمسك

www.rewity.com dodyadodo

ذراعها، وبصوت حازم قال «لن يتمكن أحد من الوقوف في وجه هذا الزواج... أتعرفين؟».

ـ لماذا تحدثني أنا عن هذا الموضوع... هناك إثنان هما يقرران، الكونت وفيليسي... أبعد يدك عن ذراعي وإلا...

ـ إعلمي، أن الكونت هو لفيليسي وليس لأحد غيرها.

ـ أعتقد أن عليك عدم مخاطبتي بأمور لا تعني لي شيئاً...

ـ لا تعني لكِ شيئاً. قال وهو يشد على ذراعها... أنا أدرى الناس بك ومما تريدين... إسمعيني جيداً، إبتعدي عن الكونت... أفهمتِ؟

انتفضت جيسينا وتمكنت من الإفلات من قبضة يده، وأسرعت في صعود الدرج وهي تردد «إن أمره لا يهمني... فليذهب إلى الجحيم» لكن صدى ضحكاته تردد في أذنيها وكذلك كلماته «يا لكِ من كاذبة... كلانا يعرف، أنكِ تكذبين، كلانا يعرف أنك تحبينه».

ألقت جسدها على السرير في غرفتها، وهي تجهش بالبكاء، فعلاً هي تحبه... وفعلاً، تتمنى لو تذهب فيليسي إلى الجحيم وليس هو... ولكن ما العمل... فالرياح تعاكسها، والكونت مستسلم لفيليسي، وكأنه فتى مراهق مولع بها... أوليس هذا ما يقوله الجميع؟

لم تعد يوميات جيسينا، كما كانت... حتى أنها، لم تعد تقرأ صحف الصباح، ولا القصائد، لا تعزف على البيانو، ولا تغني...

لم يعد لديها عمل في القصر، بل أصبحت مجرد ضيفة غير مرغوب فيها من فيليسي ووكيلها، ومن يدري، قد يكون من الكونت أيضاً، الذي نادراً، ونادراً جداً ما ناداها «صديقتي الصغيرة» أو حتى تلفظ باسمها... كانت تحييه، إن التقت به بأحد ممرات القصر وتناديه «سيدي الكونت»، وكان يرد عيها، إما بحركة من رأسه أو من يده... وكأنه يخشى أن يتلفظ باسمها... أين هي تلك المودةالتي كانت تربطها به؟ كانت عيناه، كل صباح تلتقيه، تشرب الشاي معه. تعزف له، بصدق وتغني بإحساس، كانت رفيقته في نزهاته، كانت صديقته الصغيرة، وها هي اليوم، تحاول إبعاد الملل والضجر عن حياتها، ريثما يعود والدها، وتعود إلى منزلها في القرية، تعود إلى حياتها الطبيعية، بعيداً عن هذه الضغوط النفسية التي تتعرض لها، وتزداد يوماً بعد يوم... وقتلاً للوقت، أخذت جيسينا، تساعد نانسي، في توضيب الثياب حيناً، والسيدة ريفيز في إعداد الطعام أحياناً... كانت تترجم لها، وصفات الأكل الفرنسية من اللغة الفرنسية إلى الإنكليزية.

كل شيء تغير في قصر آل ريڤان... ليس نمط الحياة وحسب، بل، وحتى نوعية الطعام أيضاً... لم تعد الأطباق على المائدة، أطباقاً إنكليزية، بل فرنسية... ولم تخلو مائدة من الكافيار والفطر... والهليون...

ذات بعد ظهر يوم، كانت جيسينا، تقصد بيت إحدى أرامل القرية، ففوجئت بفيليسي، تعدو مسرعة بين أشجار الغابة، وهي ترتدي ثياباً، لا تليق بها، ولا تتناسب مع كبريائها، حتى شعرها فقد

تسريحته... ترى أين كانت؟ إنها لا تحب زيارة أحد، ولا التنزه، حتى في حدائق القصر أو عند ضفة النهر... إنها وحيدة لا أحد يرافقها. ومن ثم، لماذا تسير على هذه الطريق الوعرة التي لا يعرفها إلا أبناء القرية؟

تساؤلات كثيرة، خطرت ببال جيسينا، التي أرادت متابعة سيرها، إلى حيث تقصد، لكن فيليسي تصدت لها، ووقفت أمامها لاهثة من التعب.

ـ كنت أقوم بنزهة وسط الغابة... لكن الجو رطب وبارد نوعاً ما... قالت فيليسي.

ـ أنت محقة... فالجو رطب وبارد نوعاً ما... قالت جيسينا وهي تحاول متابعة سيرها.

ـ عليّ التخلص من هذا الحذاء اللعين. قالت فيليسي.. لقد علقت الأوحال به وجرحته الأشواك.

التفتت جيسينا إلى الحذاء، فلا أوحال عيه، ولا آثار للشوك...

تابعت فيليسي متسائلة «ما هذا الذي بالسلة؟».

ـ إنه طعام لأرملة مريضة، تعود الكونت إرساله.

أطلقت فيليسي ضحكة ماكرة، هي أشبه بضحكات العواهر دون أن تتفوه بكلمة...

ـ المعذرة، أتسمحين لي بمتابعة طريقي؟ قالت جيسينا.

ـ ولماذا... لا؟ تفضلي، وتابعي سيرك... إنما...

ـ إنما ماذا؟

ـ إياكِ أن تخبري الكونت بهذا اللقاء، فلا شك سيعتبر وجودي هنا أمراً مريباً.

ـ لست أدري لماذا تطلبين مني ذلك؟ إنه أمر لا يعنيني لا من بعيد ولا من قريب.

ـ حسناً إذن، سنكون صديقتين... كان الله معكِ. وتابعت سيرها عائدة للقصر. فيما وقفت جيسينا، حائرة، متسائلة... من هذه؟ لماذا ترفض التنزه مع الكونت، وها هي تتنزه وحيدة، ولاحت من جيسينا التفاتة لبيت الحطاب المهجور منذ سنتين تقريباً، أي منذ وفاة صاحبه، فإذ بالباب مفتوح، تعجبت... من الذي فتح الباب، أمس، كام مقفلاً...؟

وراحت الأيام تمر بطيئة، وتحولت حياة جيسينا إلى كوابيس... موعد الزفاف يقترب وآمالها تتلاشى. كانت تتمنى العودة إلى منزلها حتى ولو لتسكن فيه وحيدة، إنما والدها، ما يزال يصر عليها، في كل رسائلة، أن تبقى في القصر... إنه لا يعلم شيئاً، عن معاناة ابنته، وعن عذابها. حتى الكونت لم تعد تراه إلا نادراً، وإن صادف والتقيا، فلا تحية ولا سلام، وكأنه لم يسبق له أن التقى بها، و لم يسبق لها، أن أمسكت يده وتنزهت معه. ورددت على مسامعه قصصاً وحكايا.

من نافذة الغرفة، كانت تشاهد العربات الآتية محملة بأكياس الطحين والأرز والسكر، وما شابه، وبجميع أنواع الأقمشة الغالية

الثمن، من الساتان والموسلين والجوخ، استعداداً لحفل الزفاف... أدركت أن الذي لا تتمناه، سيحصل قريباً. وأن فيليسي ستصبح السيدة، الفعلية للقصر، ولا شك أن على الجميع تحمل تصرفاتها، وتلقي أوامرها العجيبة الغريبة، والويل لمن يتلكأ في التنفيذ.

قبل موعد الزفاف بإسبوع، جاءت نانسي، تبلغ جيسينا، أن فيليسي تنتظرها في الجناح الآخر من القصر، الجناح الذي سبق لها وزارته برفقة الكونت.

في الغرفة ذاتها، التي وقفت جيسينا فيها، متعجبة لما ترى من جواهر، وذاك العقد الماسي خاصة، كانت فيليسي ترتدي ثوب الزفاف الأبيض المتوارث في العائلة، والخياطة إلى جانبها، تحاول تسويته على مقاسها.

فور دخول جيسينا، بادرت فيليسي إلى سؤالها.

ـ كيف ترين هذا الثوب؟

ـ إنه جميل جداً... رائع...

ـ لكنه...

ـ لكنه ماذا؟ تساءلت جيسينا.

ـ ليس بأناقة أثواب الزفاف المعروضة في محلات باريس وجنيف ولندن.

نظرت جيسينا إلى الخياطة، فأحست أنها مغتاظة جداً، وأنها تتمنى لو بمقدورها صفع هذه العروس المتعجرفة، وكذلك كانت

حال جيسينا، التي ما رأت عقد الألماس بين يدي فيليسي حتى تذكرت، كيف وقفت أمام المرآة، وهو يزين عنقها.

ـ وما رأيك بهذا العقد يا جيسينا، أيتناسب مع ثوب الزفاف؟ قالت فيليسي بأسلوب ساخر فيه الكثير من الخداع والمكر.

ـ إنه العقد المناسب للثوب المناسب يا آنستي...

استدارت فيليسي لتصبح وجهاً لوجه مع جيسينا، وعلى شفتيها ابتسامة صفراء.

ـ أترغبين أن يكون لكِ، أما تتمنين هذا؟

أدركت جيسينا، غاية فيليسي، تمالكت أعصابها، وحافظت على هدوئها.

ـ ما رغبت به، ولا تمنيته يا آنسة فيليسي، أنا إنسانة، أعرف من أكون، يكفيني فخراً واعتزازاً أني إبنة الدكتور كارلتون، والكل، في القصر وفي البلدة، يحبونني.

استدارت جيسينا، واتجهت نحو الباب، لن تسمح لهذه المتعجرفة أن تثير أعصابها، أو غضبها، على العكس، ستسعى جاهدة، لجعلها هي تثور وتفقد توازنها العقلي، فتتصرف وكأنها مجنونة.

ـ ماذا تفعلين هنا؟ تساءل السيد فرناند الذي كان يدخل الغرفة.

رمقته جيسينا بنظرة غضب و لم تجب، لكن فيليسي أخبرته أنها هي من أرسلت بطلبها.

ـ ولماذا؟ أما تعرفين أن تصرفكِ هذا، هو تصرف طائش؟

ـ أعرف، ولكن أحسست بالضجر وأردت أن أتسلى .

تابعت جيسينا طريقها خارجة دون أي اهتمام لفرناند الذي حاول اعتراض طريقها، لكنها أبعدته بيمناها، وهي تنظر إليه باحتقار.

في غرفتها وقفت قرب النافذة، محاولة إيجاد أجوبة لألف سؤال وسؤال: أي نوع هي هذه فيليسي؟ ومن هو فرناند هذا؟ يتصرفان بما يثير الريبة والشك... ماذا ستكون ردة فعل الكونت لو علم بما جرى اليوم؟ سيدافع عنها، أم يبقى صامتاً؟ ماذا لو أخبره أحد، مما يجري في القصر، عن العلاقة المشبوهة التي تربط خطيبته بوكيلها أو مدير أعمالها، كما تحب أن تقول.

لم تتمكن جيسينا من النوم. أمضت الليلة كلها تتقلب على السرير، غير قادرة على استيعاب ما جرى... إن فيليسي تضحك كالعواهر تماماً، وتهز ردفيها مثلهن أيضاً...

والكونت لا يرى شيئاً، لكنه يبدو واضحاً أنه مغرم بها، لماذا؟ لا أحد يدري. حتى سارة المربية العجوز، تتساءل عن سبب مقنع لتعلق الكونت بخطيبته... إنه لا يرفض لها طلباً، ولا يسمح لأحد أن يفعل ذلك.

عند الفجر، نزلت جيسينا عن السرير، وعادت لتقف قرب النافذة، تستنشق الهواء النقي، وتمتع عينيها برؤية الشفق يتلون باللون الذهبي، وبانعكاس إشعاعات الشمس الأولى، على مياه

النهر، وكيف هي تتسلل من بين أغصان الشجر... إنه لمنظر رائع سبق لها ووصفته للكونت الذي قال، سبحانه خلق كل شيء ليسعدنا، وفي الوقت جعل البعض غير قادر على نيل السعادة...إنها حكمته، كما قال.

ماذا لو قمت بنزهة في الحديقة أو قرب النهر؟ الكل ما يزالون نياماً، الجو صاف؟ ارتدت ثيابها ونزلت الأدراج على رؤوس أصابعها، متجهة نحو الباب الخلفي للقصر، حتى لا يسألها الحارس «إلى أين يا آنسة كارلتون؟».

كان هناك صراع بين الظلمة والنور، وجيسينا تنتقل من حديقة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، محاولة نسيان عذابها النفسي، كانت تعتقد أن لا أحد غيرها في هذا المكان، لكن صوتاً وصل إلى مسامعها، جعلها تدرك أن هناك من سبقها في التنزه. إنها فيليسي تجلس على أحد المقاعد الخشبية وإلى جانبها فرناند، يتبادلان الضحكات حيناً، والقبلات الحارة أحياناً...

اندهشت جيسينا لما رأت... أيعقل هذا؟ أهو وكيلها أم عشيقها؟ اندهشت وارتعدت. خشيت أن يراها أي منهما. فهذا يعني القضاء عليها نهائياً، بهدوء عادت من حيث أتت، متسائلة أي طريق تسلك حتى لا يراها أحد، وإلى أين تذهب... لا بد من الذهاب إلى سارة. «إنها الوحيدة التي قد تصدق ما سأرويه لها... مع أنه أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة».

أمام باب غرفة سارة، وقفت، تعيد ترتيب هندامها والتخلص من بعض الشوك الذي علق بثوبها وهي عائدة سالكة الطرق الوعرة،

منعاً لرؤية أحد... بهدوء دقت باب الغرفة.

ـ من الطارق؟ قالت سارة...

ـ أنا جيسينا، أرجوكِ أسرعي وافتحي الباب.

ثوانٍ قليلة، وكانت جيسينا ترتمي بين ذراعي سارة وهي تجهش بالبكاء، وبالطبع بعد إعادة إقفال الباب بهدوء.

الفصل الخامس

حدقت سارة بجسينا، فاستغربت حالها...

ـ أين كنتِ يا ابنتي؟ من أين هذا الوحل على حذائكِ؟ ولماذا رداؤك مبلّل هكذا. أكنتِ تحرثين، أم تسيرين تحت المطر المتساقط؟

تنفست جيسينا بعمق، وهي تخلع حذاءها، وتضعه عند عتبة الباب، وألقت بجسدها على الأريكة قرب المدفأة، لاهثة الأنفاس؟

ـ إهدئي يا ابنتي... خذي نفساً عميقاً.

ـ آه يا سارة... قالت جيسينا بصوت متقطع،

ـ ماذا... ولماذا أنتِ هكذا؟

ـ لست أدري ماذا أقول؟

أسرعت سارة بإعداد الشاي، فيما جيسينا مضت تخبرها عما رأت، إن بالقرب من منزل الحطاب المهجور، حيث التقت بفيليسي، إن اليوم في تلك الإستراحة بحديقة القصر، قرب النهر...

ـ ماذا؟... هذا قول خطير يا جيسينا...

ـ لكنه الحقيقة يا سارة...

www.rewity.com dodyadodo

لم تتمكن جيسينا من إمساك كوب الشاي، يداها ترتجفان، وجسدها يرتعش، والدمع في عينيها، حتى هي غير مصدقة ما سمعت وما رأت... لا تنكر أنها تتمنى لو يفسخ الكونت خطوبته لفيليسي، لكنها لا تريد أن تكون هي السبب؛ بل تريده أن يفعل ذلك، اقتناعاً منه، هذه الفرنسية، الآتية لتتزوج رجلاً لم تره من قبل، ليست المرأة المناسبة له.

ـ ولكن لماذا أنت هكذا؟

ـ لأني، أثناء العودة إلى القصر، سلكت طريقاً متعرجة وسط الغابات، فسقطت في حفرة ماء موحلة، عانيت الكثير، حتى تمكنت من الخروج منها... صدقيني، لو تمكن ذاك اللعين من اللحاق بي، لما كنت الآن هنا، لربما كان تركني جثة هامدة، أو رماني في النهر الهادر. الأهم من هذا كله... ما الذي عليّ فعله يا سارة؟

ـ أن تخبري الكونت... هذا هو عين الصواب...

ـ ولكن كيف يمكنني ذلك؟ علاقتي به شبه مقطوعة، حتى أنه لم يعد يستدعيني لقراءة صحف الصباح إلا نادراً. ولا نزهات معاً، ولا أحاديث قرب المدفأة، كما كان في السابق، قبل مجيء فيليسي، التي لا تفوت فرصة، إلا وتزرع الشكوك في عقله ضدي... إني الآن في مأزق... لست أدري ماذا أفعل؟ هذه خيانة... إن الذي رأيته وسمعته، بعيد كل البعد، عن أخلاقنا، نحن أبناء الريف الإنكليزي، حتى عن أخلاق الإنكليز في لندن...

ـ فعلاً إنه لكذلك يا جيسينا، ولكن علينا المحاولة. محاولة إطلاع

الكونت عما يجري. فلا شك سيصغي إليكِ، ولربما يؤجل موعد الزفاف، إن لم يلغه...

ـ إني خائفة من مواجهته...

ـ إسمعيني جيسينا، إن لم تفعلي أنتِ، فسأفعل أنا، ولكن من الأفضل أن تقومي أنتِ بإبلاغه، فأنتِ من رأت وسمعت...

ـ حسناً سأفعل ذلك الآن... الآن، وليس بعد ساعة...

بتثاقل نهضت جيسينا عن الأريكة واتجهت نحو غرفة الكونت في الطابق الثاني... رغم إشعاعات الفجر، فأروقة القصر، ما تزال تغرق بنوع من العتمة. فالريح هبت، وجلبت من الغيوم الحبلى بالمطر. وهكذا، اختفى النور الصباحي...

برقة دقت باب غرفة الكونت، دون أنت تسمع جواباً... فإذ بوقع أقدام على الدرج... احتارت جيسينا ماذا تفعل؟ وأين تختبيء، إنها لا تريد أن يراها أحد... تلفتت يميناً وشمالاً، فإذ بصندوق خشبي كبير، على بعد أمتار منها، أسرعت واختفت خلفه، وعيناها مصوبتان نحو الدرج. «ترى من القادم في مثل هذه الساعة؟» سؤال وجد جوابه سريعاً... إنه السيد فرناند... وقف أمام باب غرفة الكونت وراح يقرعه بقوة...حتى فتح ودخل.

ما هذه الزيارة غير المتوقعة؟ ولماذا؟ لا شك أن هناك أسباباً مهمة دفعت وكيل فيليسي ليأتي في مثل هذه الساعة. بقيت متوقفة مكانها خلف الصندوق، مرتعشة الجسد، بسبب الخوف والإحساس بالبرودة تسري في جسدها... وطال الإنتظار، الدقائق

تحولت ساعات... إنه القلق الممزوج بالخوف... وبعد فترة، لم تتمكن من تقديرها، خرج فرناند من غرفة الكونت، وهبط الأدراج مسرعاً.

لم تتوانى جيسينا، عن الإسراع، من الوقوف، والتوجه فوراً نحو غرفة الكونت التي كان بابها ما يزال غير مقفل، ودون استئذان دخلت، فإذا بالكونت يقف قرب المدفأة التي أحست بحرارة لهيبها المتصاعد ألواناً برتقالية، وصفراء وحمراء.

ـ سيدي الكونت... قالت بصوت خافت.

استدار الكونت نحو الصوت متسائلاً «من...؟ جيسينا؟».

ـ نعم أنا هي سيدي الكونت... لدي ما أقوله لك.

ـ أعرف...

فوجئت جيسينا... «كيف يعرف أن لدي ما أقوله له ؟». ولماذا هذه النبرة الجامدة؟ أنسيَ أني صديقته الصغيرة؟ أم أن هناك من أنساه هذا؟

رغم كل هذه التساؤلات، استمرت في إصرارها، على رغبتها في إخباره، عما رأت وسمعت... في إطلاعه، على ما تقوم به خطيبته من تصرفات، لا تليق بإنسانة محترمة، وتحط من قدر خطيبها.

ـ أرجوك سيدي الكونت، الإصغاء لما سأقول... لانه يهمك جداً. ويقلقني... كنت أتنزه في الحديق. قرب الإستراحة عند ضفة

النهر، حيث رأيت السيد فرناند وخطيبتك الآنسة فيليسي، بوضع مشبوه، كانا متعانقين، يتبادلان القبل، وكأنهما عاشقان...

كانت الكلمات، تخرج متقطعة من بين شفتي جيسينا... إنها متعبة فكرياً وقلقة، وخائفة في آن.

لم أكن أتقصد مراقبتهما، ولكن الصدفة هي التي قادتني إلى حيث كانا... فأرجوك أن تعذرني، لكني وجدت نفسي مجبرة على إبلاغك الحقيقة.

ـ الحقيقة؟ رد الكونت بصوت حازم «ما هذه الأكاذيب التي تختلقينها... لماذا أنتِ ماكرة؟ لست أدري لماذا تسعين إلى تشوية سمعة فيليسي؟».

ـ أنا؟... تساءلت جيسينا... ما بك سيدي الكونت تتهمني بمثل هذه التهم.

تجهم وجه الكونت، وزم شفتيه، وعقد حاجبيه.

ـ منذ قليل، كان السيد فرناند، هنا، وأبلغني أنه رأكِ حيث تقولين، وأنه يرتاب من تصرفاتكِ، ويجزم أنكِ تراقبين خطوات خطيبتي، خطوة خطوة، وتوجهين لها الإهانات... هكذا من دون أي سبب.

ـ أنا...؟

ـ نعم أنتِ، ومن ثم لا تقاطعينني حين أكون أتكلم... أتعرفين هذا؟

تأكدت جيسينا، أنه لا مجال لإقناعه أنها صادقة، وأنه واقع تحت تأثير السيد فرناند والآنسة فيليسي... أحست بالإهانة تُوجّه إليها... وممن؟ من الإنسان الذي ما نظرت إليه، إلا باحترام وتقدير، من الإنسان الذي تحبه وتتمناه زوجاً لها.

ـ أنتِ تغارين منها... وهاجسكِ الوحيد تشويه سمعتها لتحقيق غاياتكِ... حتى أنكِ حاولتِ سرقة العقد الماسي، الذي أهديته لها، وأنت تعرفينه.

ـ ماذا؟... ما هذه الأكاذيب... أإلى هذا الحد وصل السيد فرناند بالحقارة، أن يتهمني بالسرقة...

ـ لا تتفوهي بهكذا كلمات، واعلمي أن لا يحق لكِ مطلقاً أن تتهمي أياً منهما بمثل هذه التهم... أخرجي من هنا...

ـ سيدي الكونت...

ـ قلت أخرجي... أم تريدين استدعاء من يخرجك عنوة.

كالصاعقة، وقع كلام الكونت... حدقت به، فاغرة الفم، تمنت لو بمقدورها أن تصفعه، «عنوة» رددت جيسينا «أتريد إخراجي عنوة؟ إخراجي أنا صديقتك الصغيرة، أنا التي كنت عينيك قبل وصول هذه الماكرة؟».

استدارت وخرجت، والدموع تبلل وجنتيها... لقد أحست بالإهانة، لم تكن تتوقع هذا الموقف الذي اتخذه الكونت. لم تكن تدري كيف تهبط الدرج، ولا إلى أين تذهب... إلى سارة أم إلى غرفتها؟ جاءت ممنية النفس أن يلغي الكونت زواجه من

فيليسي، فوجدت نفسها مغضوباً عليها، مطرودة...

لم تشأ العودة إلى سارة... إنها محبطة، بحالة نفسية يائسة ولا تريد أن يراها أحد ـ حتى سارة ـ وهي في هذه الحال.

ارتمت على السرير في غرفتها، دون أن تبدل ملابسها المبللة، وأجهشت بالبكاء حتى بلل دمعها الوسادة... لماذا هذا الإنقياد لأوامر هذه المتعجرفة الخائنة؟ وأسئلة كثيرة، إنما لا أجوبة مقنعة... يستحيل تقبل فكرة استمرا إصراره على الزواج من فيليسي، رغم ما أخبرته.

ترى أي سحر لهذا اللعين الذي اسمه فرناند، حتى تمكن من السيطرة على الكونت المسكين الذي لو كان يرى، لكان رآهما كيف يتصرفان، حتى على المائدة.

هل كان عليها أن تبقى صامتة. فلا تخبره بما رأت؟ إنها الحيرة المقلقة المضنية... لا أمل لها بعد الآن باستمالته مجدداً كصديق، فكيف كحبيب؟

تساءلت جيسينا التي نسيت أن تبدل ثيابها، أو حتى أن تخلع حذاءها، رغم الخدر الذي بدأ يصيب قدميها، تساءلت كيف تتمكن فيليسي من لعب دورين متناقضين. كيف تتمكن من أن تمثل دور الحبيبة مع الكونت، وتقنعه، أن لا أحد غيره في حياتها، وأنها مهتمة به، رغم إعاقته، كل الإهتمام، ومن لعب دور عشيقة وكيلها فرناند، ومعه تحيك الدسائس والمكائد لذاك الإنسان الذي وثق بها، وجعل من نفسه موضوع تهامس الخدم في قصره، في مطلق الأحوال، عليه

معاملتها، كما تعتقد جيسينا، باحترام كلي، إنها ليست خادمة، وهي ضيفة في قصره، أكثر مما هي موظفة للقيام بمهام القراءة...

قطرات الماء، تنساب على زجاج النافذة، والمدفأة تحن إلى آلسنة النار المتعددة الألوان، وجيسينا ما تزال مستلقية على سريرها، وقشعريرة البرد تسري في جسدها، وترفع من حرارته، وتوهنه وتضعفه، حتى باتت غير قادرة على النهوض من فراشها... اشتدت الريح وتمكن الصقيع من التسلل إلى غرفتها... مسكينة جيسينا، ممددة وحيدة هنا، والكل، خارج هذه الغرفة منهمك في الإستعداد لحفل الزفاف الذي سيتم بعد ظهر هذا اليوم الذي تمنت لو بمقدورها إلغاءه... ولكن، ماذا يمكنها، أن تفعل أكثر مما فعلت؟ أخذ التعب منها مأخذاً، وكذلك المرض. فأصبحت وكأنها في شبه غيبوبة. آلام جسدية وعذابات نفسية، وآمال محطمة... إنها غير قادرة على الحركة... حتى بزوغ الشمس لم يزرع الدفء، لا في جسدها ولا في نفسها.

أجراس الكنيسة تقرع. الكونت في بذته السوداء، يقف أمام المذبح وظهره إلى المدعوين. منكبان عريضان، قامة ممشوقة وشعر أسود...

سارة، عند المدخل، عيناها شاخصتان نحو الباحة، تحدق بكل آت، عربات الخيل، تأتي الواحدة تلو الأخرى، مقلة المدعوين الذين هم من علية القوم ونبلاء المنطقة وأشرافها. إنها تبحث عن جيسينا التي زارتها صباحاً، ولم تعد...

تساءلت سارة، يبدو أن جيسينا لم تخبر الكونت عما رأت

وسمعت، وإلا لما كان الكونت هنا، لما كان سيتم هذا الزفاف، إذ من غير المعقول أن يرتضي الزواج من امرأة، تخونه قبل أن تصبح زوجته، فكيف بعد ذلك؟

لحظات وأطلت عربة مزينة بالورود... إنها عربة العروس فيليسي الآتية برفقة عشيقها فرناند... «فعلاً إنها رائعة الجمال» قالت سارة، وهي تنظر إلى فيليسي مرتدية ذاك الفستان الأبيض، وعقد الألماس يزين عنقها.

أمام المذبح، وإلى جانب الكونت وقفت فيليسي بانتظار أن يعلنهما الكاهن، زوجاً وزوجة، فيما جلس فرناند على كرسي في الصف الأول، مزهواً بنفسه، لقد تمكن من تحقيق غاياته وأهدافه... ولكن كيف؟ ألم تقدم جيسينا على إخبار الكونت، عن العلاقة المشبوهة بين فيليسي ووكيلها؟ ومن ثم أين هي جيسينا، وحدها لم تحضر بعد، أتراها غادرت القصر وعادت إلى منزلها المتواضع في القرية؟ إنما، أيعقل أن تفعل ذلك، دون أن تقول وداعاً لي «تساءلت سارة».

ـ أيها الكونت هيغو، أتريد الآنسة فيليسي هذه الواقفة إلى جانبك زوجة لك، تسعدها وتحميها من غدرات الزمن؟ تساءل الكاهن.

ـ نعم أريد. أجاب الكونت.

ثم التفت الكاهن نحو فيليسي.

ـ وأنتِ يا آنسة فيليسي، هل تريدين الكونت هيغو الواقف إلى

جانبكِ زوجاً لكِ، وتمضين حياتكِ معه في السراء والضراء؟

بدون أي تردد أجابت... نعم.

ـ إذن بما لي من سلطات روحية أعلنكما زوجاً وزوجة... يمكنك أيها العريس تقبيل عروستك.

لم تنتظر فيليسي، أن يستدير الكونت نحوها، ليطبع قبلة على شفتيها، بل اتخذت المبادرة، خلافاً لما هو متعارف عليه، وشبكت ذراعها بذراعه، واستدارا، ومضيا معاً نحو مدخل الكنيسة...حتى قبل لحظات، كانت سارة، تعتقد أن هذا الزواج لن يتم، وأن الكونت سيرد الإهانة لفيليسي بمثلها ويقول للكاهن « لا... لا أريدها، لأنها أقدمت على خيانتي مع السيد فرناند» لكن هذا لم يحصل...

أثناء مرورهما بين المدعوين، التفتت فيليسي نحو فرناند ورمقته بنظرة تعبر عن الفرح وكأنها تقول «لقد انتصرنا» الكل لاحظ تلك النظرة إلا الكونت... لا سبب، إلا لأنه لا يرى.

جيسينا تتقلب على سريرها، متسائلة عن سبب هذا الضجيج الزائد في القصر. لكنها تذكرت. أن اليوم هو يوم زفاف الكونت المخدوع من الخائنة فيليسي، حاولت النهوض للوقوف قرب النافذة، إنما لم تتمكن... حتى بضعة خطوات. عجزت عن أن تخطوها... إنها الحمى، وردّت خديها، وأوهنت جسدها...

جسد مريض ونفس عليلة... هذه جيسينا التي كانت تتمنى لو أن والدها لبى دعوة الكونت لهذه المناسبة، لكانت الآن، بين

ذراعيه، يهتم بها، يرعاها... ينتشلها من حيرتها هذه، يعيدها إلى المنزل...

أغمضت جيسينا عينيها، مستسلمة، لا للنعاس، بل للإرهاق... دون أن تدري كم مضى عليها وهي في مثل هذه الحال... فجأة شعرت بيد تمتد وتلامس جبينها، وأحست أن قطعة قماش مبللة بالماء، توضع فوق ذاك الجبين، وبعد قليل تمكنت من أن تفتح عينيها، فرأت سارة إلى جانبها، تعتني بها.

ـ سارة، بصوت متقطع قالت جيسينا... حاولت إقناعه، لكنه، بدلاً من الإصغاء لي، طردني من غرفته، كان فرناند اللعين، سبقني إليه، وأخبره أشياء وأشياء عني... نعم عني أنا وأقنعه، بأني أمقت فيليسي وأغار منها، وأوجه لها الإهانات وحاولت سرقة العقد الماسي...

ـ ماذا؟ صاحت ساره... على كل استريحي الآن... لم يعد هناك مجال لفعل شيء... لقد تزوجا أمام الله...

أشعلت سارة النار في المدفأة، وعرّتها من ثيابها المبللة، وألبستها بدلاً منها، بعد أن مسحت جسدها بقطعة قماش جافة... وجلست على كرسي قرب السرير، تراقب حالتها... إنها تحبها... منذ كانت صغيرة، وسارة تحب جيسينا، وأشفقت عليها كثيراً، بعد وفاة والدتها. كانت جيسينا دون الثامنة، حين فقدت أمها... ومنذ ذلك الحين، وهي ترافق والدها، إلى أي مكان يذهب إليه. وخاصة إلى قصر آل ريڤان... إنه طبيب العائلة وصديقها. احترمه الكل، وقدّروا له ما يقدم من خدمات صحية، وأكبروا فيه، عدم

www.liewity.com dodyadodo

زواجه، وانصرافه للإعتناء بإبنته، ليكون الأم والأب في آن...

كانت سارة، تطل عبر النافذة، من حين لآخر، لتراقب المدعوين إلى حفل العشاء في القصر... في القصر، الذي أمضى زمناً طويلاً، لا يعرف إلا الأحزان... إنها الفرحة الأولى، منذ عشرات السنين.. الخدم في حركة دائمة، يحضرون الموائد، يوزعون باقات الورد في كل الزوايا، ومن ثم تعود للعناية بمريضتها الصغيرة، تعد لها الحساء الساخن والشاي...

احتارت ماذا تفعل، لو تطور المرض... فما من طبيب في المنطقة كلها، لكنها قررت ما قد يكون مستحيلاً.

خلسة، تسللت من غرفة جيسينا، وقصدت غرفة الكونت الذي كان وحيداً وأخبرته عن حال جيسينا، محملة إياه مسؤولية ما هي عليه، وطلبت منه مرافقتها ليتحقق من صدق قولها.

فتحت جيسينا عينيها، قليلاً، فإذ برجل بجانب سارة قرب سريرها. لم تتمكن من التعرف إليه، لكن صوته، أكد لها، إنه الكونت.

ـ وماذا تريدين مني يا سارة...؟ بعد قليل، سيبدأ الحفل الراقص، وسيكتمل حضور المدعوين... وعليّ أن أكون هناك...

ـ أهذا كل ما تستطيع قوله؟ قالت سارة... وأشارت بيدها نحو جيسينا. «وهذه الممددة هنا... أوليست إنسانة، أوليست ابنة الدكتور كارلتون؟».

مدت سارة يدها وأمسكت بيد الكونت ووضعتها فوق جبين جيسينا...

ـ إنها جد محرورة... قال هذا وسحب يده عن جبينها.

ـ نعم، أتعرف لماذا؟

ـ لا...

ـ بسبب اليأس وخيبة الأمل، أنا من نصحها أن تخبرك بما شاهدت وسمعت...، إن الذي روته لي أكد شكوكي وظنوني، كذلك شكوك وظنون الآخرين، إسمع أيها الكونت، ربيتك كولد لي، ولا أعتقد أنا أماً تكذب على ولدها... كذلك عرفت جيسينا، منذ كانت صغيرة، وأعرف أنها صادقة ومخلصة... أنت لا تعرف كم اعتنت بجدك... لكنك سببت لها الآذى النفسي... لقد أهنتها.

ـ لكنها كثيراً ما كانت تسخر من فيليسي.

استجمعت جيسينا بعضاً من قواها «هذا كذب وافتراء... لم أفعل قط ذلك...؟» حاولت أن تقول أكثر، لكنها لم تقوى.

ـ لقد حاولت سرقة العقد الماسي.. أتعرفين هذا؟

ـ ماذا؟ تساءلت سارة.. ولماذا تسرقه؟ ألم تقدّمه أنت لها ورفضت... أم أنك نسيت ذلك؟

ـ لا... ولكن ما الذي جعلها تذهب ثانية إلى تلك الغرفة...

بصوت متقطع أجابت جيسينا... لم أذهب إلى هناك، بل هي من أرسل بطلبي...

ـ من؟ قالت سارة.

ـ فيليسي، أرسلت نانسي بطلبي.

ـ أسمعت؟ اطلب من مرافقك الشخصي أن يستدعي نانسي... إنه في الخارج ينتظر.

ـ حسناً...

دقائق معدودة، وجاءت نانسي، نظرت إلى الكونت مستغربة وجوده في غرفة جيسينا...

ـ أمرك سيدي...

لم تفسح سارة المجال له أن يتكلم، بل أسرعت بسؤال نانسي.

ـ لماذا لم تقولي لي، إن جيسينا قصدت الغرفة في الجناح الآخر.

ـ لأني لم أجد ضرورة في إعلامكِ.

ـ ماذا؟... وبأي حق ذهبت إلى هناك؟

ـ بناءً لطلب الآنسة فيليسي... عفواً الكونتيسة فيليسي.

ـ بناءً لطلب من؟ صاح الكونت.

ـ بناءً لطلب الآنسة فيليسي، لقد طلبت مني ذلك، وبقيت معهما في الغرفة بوجود الخياطة، حتى دخول السيد فرناند وطلب منها الخروج.

ـ من؟ تساءلت سارة.

ـ السيد فرناند وراح يتكلم بالفرنسية مع الآنسة

فيليسي دون دراية منه أن الآنسة جيسينا تتقنها.

ـ أسمعت سيدي الكونت؟ قالت سارة...

ـ نانسي... هل أنتِ متأكدة مما تقولين؟ قال الكونت.

ـ إني أقول الحقيقة، ولكن، لماذا كل هذا الإستغراب؟

ـ قيل لي إنها، أي جيسينا، حاولت سرقة العقد الماسي، لكن فيليسي أفشلت ذلك...

ـ أي كذب هو هذا...؟

ـ حسناً إذن... أرجوكما إعتنيا بجيسينا... ولن تمر الليلة دون تسوية أمور كثيرة.

ـ إهدئي سارة... المدعوون يتوافدون، وعليّ استقبالهم ولكن.. هناك ما هو أهم.

استدار وهو ينادي مرافقه الشخصي لمساعدته في هبوط الأدراج وهو يقول «اعتنيا بجيسينا».

الفصل السادس

كان لزيارة الكونت، أثر كبير على صحة جيسينا، لقد تمكنت، بمساعدة سارة، على استعادة ثقته، فبدأت تستعيد عافيتها؛ انخفضت الحرارة، وازدادت شهيتها للطعام، كما أنها صارت قادرة على الجلوس في سريرها.

أغمضت عينيها وراحت تسترجع ذكرى وضع يد الكونت على جبينها، وكم أشعرتهاة بالدفء والسكينة، تذكرت كيف تحوّلت ملامته لها إلى اهتمام... فتبتسم، مع إدراكها الكلي، أن لا أمل بعودته إليها كحبيب، إنه الآن رجل متزوج، وها هم المدعوون، يتوافدون، عائلة بعد أخرى، لمشاركته فرحته في هذه المناسبة، ولكن أي فرحة؟ إنه مصمم على وضع حد لهذه المهزلة، كما قال، وقد يقدم، على فضح ألاعيب الكونتيسة، وفضح، كيف ارتضت به زوجاً، وهي على علاقة حب وعشق وغرام، مع وكيلها السافل فرناند؟ ترى إلى أي حد وصلت النذالة بهذا الرجل، كيف يرتضي أن تتزوج حبيبته من إنسان آخر؟ إذن لا بد إنه اتفاق بين الإثنين، لا لسلب الكونت ثرواته وممتلكاته وحسب، بل لربما القضاء عليه...

في قاعة الإستقبال، في الطابق السفلي من القصر، تعزف الفرقة

الموسيقية، أعذب الألحان وأشجاها، والمدعوون يرقصون، كل مع زوجته أو حبيبته، وكذلك تتراقص ألسنة النار في المدفأة، في غرفة جيسينا... ألسنة النار تتمايل، كما خصور السيدات الجميلات، سيدات المجتمع الراقي المدعوات مع أزواجهن لهذه المناسبة.

تركت جيسينا سريرها، ووقفت قرب النافذة، وراحت تراقب وصول عربات الخيول، وكيف تسرع النساء في الدخول إلى قاعة الإحتفال، حتى لا يفسد المطر، تسريحة شعرهن، أو زينة وجوههن، أو حتى لا تتبلل أثوابهن الطويلة.

كانت جيسينا تراقب، شاردة الذهن، تتزاحم الأفكار في رأسها وكذلك التساؤلات: ماذا سيحدث؟ كيف سيتصرف الكونت؟ لكن صوت نانسي، قطع حبل أفكارها، ومزق ذاك السكون الذي كان يسيطر على الغرفة.

ـ أتيت أبلغك أن سارة، ستحضر لك بعض الحساء الساخن ولأكون إلى جانبكِ ولكن ليس لوقت طويل.

إلتفتت جيسينا، وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيها، إنها ابتسامة الأمل، ولو كان آملاً ضئيلاً، أو ـ لربما ـ لا رجاء منه.

ـ شكراً نانسي، وكأنه لا يكفيكم ما أنتم مضطرون للقيام به، عليكم الإهتمام بي أيضاً...

ـ آه... آنستي، لو تدركين، كم نحن مشغولون... علينا تحضير كل شيء قبل الحادية عشر... موائد فاخرة، أطباق طعام متنوعة الأصناف، المحار... الخنزير البري المشوي، الطيور المحشوة بالأرز

والكاجو أو اللوز والفستق، ثمار البحر على أنواعها، إضافةً إلى أطباق الخضار الطازجة، النيئة أو المطهوة.

ـ أطباق شهية، ألا تعتقدين كذلك يا نانسي؟

ـ إنها فعلاً كذلك... سمحت لنفسي بتناول قطعة من المحار... إنها جد شهية، آخ، لو ترين أعضاء الفرقة الموسيقية، ببذاتهم السوداء وقمصانهم البيضاء.

ـ أتعرفين يا نانسي، إنها الفرحة الأولى في هذا القصر...

ـ نعم آنسة جيسينا... أمضيت فترة لا بأس بها هنا، و لم أشاهد مثل هذا الإحتفال...

ـ لا شك أن الصالة تعج بالناس؟

ـ نعم إنها لكذلك...

ـ وهل رأيتِ العروسين؟

ـ بالطبع... كانا يستقبلان المدعوين... بقيت أراقب كل شيء، حتى أواني الطعام المصنوعة من البورسلين الأصلي، حتى أطل ذاك الخسيس.

ـ أتقصدين السيد فرناند؟

ـ ومن غيره... إنه يثير اشمئزازي، لماذا؟ لست أدري... يتجول في القصر كاللص... واليوم صباحاً أتعرفين أين رأيته؟

ـ لا... وكيف لي أن أعرف...

ـ رأيته يخرج من غرفة الأسلحة... تلك الغرفة الخاصة بالكونت الكبير رحمه الله. كم هو حشري؟

ـ ماذا؟ صاحت جيسينا... غرفة الأسلحة؟ أمتأكدة أنتِ مما تقولين؟

ـ نعم... ولماذا أكذب؟

ـ من يدري... قد يكون سرق مسدساً... رباه... ما هذا الذي أسمعه؟

ـ لم أره يفعل ذلك... لكني لا أحبه. وهو قادر على فعل كل شيء حتى السرقة...

بشكل عفوي، استدارت جيسينا نحو نانسي.

ـ عليّ الذهاب فوراً.

ـ إلى أين، قالت. ما تزالين غير قادرة على الحركة... وماذا ستقول سارة، إن جاءت و لم تجدكِ؟

ـ سأنزل إلى الصالة حيث الإحتفال... إنما أرجوكِ ساعديني بارتداء أي ثوب... الثوب الأزرق...

ـ أرجوكِ آنسة جيسينا، لا تتسرعي... أنت بحاجة جد ماسة للراحة.

ـ لا عليك... أسرعي وساعديني...

رضخت نانسي للأمر الواقع، وصففت شعر جيسينا، التي ما إن وقفت أمام المرآة، حتى صعقت لشحوب وجهها واصفرار

عينيها... لم يكن لديها وقت للتبرج، فإن جاءت سارة، فهذا يعني عليها العودة لملازمة الفراش... أوامر سارة لا ترفض.

ـ نانسي... إياكِ أن تخبري أحداً بما قلته لي، أو بأني تركت غرفتي...

ـ حسناً، ولكن ماذا لو حضرت سارة و لم تجدكِ؟

ـ متأكدة لن تحضر... فالكل مشغول بحفل الزفاف هذا.

ـ لكِ ما تريدين... إنما أنا أيضاً أرجوكِ ألا تخبري أحداً، بأني أكلت قطعة محار...

تناست جيسينا ما بها من إعياء وتعب، و لم تعر اهتماماً للشحوب البادي على محياها، ولا لتسريحة الشعر، وصممت على الخروج من غرفتها. إنها خائفة على الكونت، «من يدري قد يكون الخسيس فرناند قد سرق مسدساً، ولماذا؟ أوليس من أجل إيذاء الكونت؟».

بتثاقل نزلت جيسينا، اضطرت للإتكاء على حافة الدرج والتوقف من حين لآخر، طلباً للإستراحة... وما إن وصلت إلى الأسفل، حتى اندهشت مما ترى... عشرات من الناس يتحلقون في زوايا القاعة، وراقصون في وسطها ومدعوون لا يزالون يتوافدون... موائد عامرة بجميع أنواع الأطعمة، الإنكليزية منها والفرنسية. الشموع في كل مكان، تبعث النور والدفء.

الكونت إلى جانب الكونتيسة، يقفان عند المدخل يستقبلان المدعوين ويرحبان بهم... إنما أين هو ذاك المحامي اللعين؟... لا أثر

www.rewity.com dodyadodo

له... حدقت جيسينا بالكونت الذي يرتدي بذة سوداء وقميصاً أبيض، «إنه جذاب ووسيم فلماذا لا أحبه؟» ولكن الكونتيسة، بثوبها الأرجواني الموشى بخيوط ذهبية، الذي يكشف عن الصدر أكثر مما يخفي، والعقد الماسي يزين عنقها، تبدو فاتنة ساحرة... إنها فعلاً رائعة الجمال... إنما الكونت لا يرى كل هذا...حتى أنه لا يرى، كيف أن عروسته ترمق اللورد بويلينغ، بنظرات الإغراء والتشجيع على دعوتها للرقص...

لم يخيب اللورد المزهو بنفسه، أمل الكونتيسة، إذ سرعان ما تقدم نحوها، وعيناه عالقتان بعينيها، ودون التفات للكونت، توجه إليه بالقول «أيأذن سيدي الكونت بمراقصة عروسته؟».

ـ بالطبع أوافق... أجاب الكونت... بدا واضحاً، من خلال نبرة صوته، أن موافقته هي من باب التهذيب واللياقة ليس أكثر... وأنه، في قرارة نفسه، كان يود الرفض...

أدركت جيسينا، أن الكونت يخطط لشيء ما... إنه الحدس، جعلها تدرك هذا... واستغلت وقوف الكونت وحيداً فتسللت إلى جانبه وهمست في أذنه «سيدي الكونت».

انذهل الكونت لسماعه صوت جيسينا.

ـ جيسينا...؟... ماذا تفعلين هنا...؟ يفترض بكِ أن تكوني ملازمة فراشكِ... فأنتِ لستِ بصحة جيدة...

أحست بمدى اهتمامه بها، فأحاطت خصره بذراعها وراحت تتخيل أشياء وأشياء، تخيلت نزهاتها معه، في الحدائق، وقرب النهر

وفي الغابة القريبة، تخيلت نفسها تعزف له على البيانو وهو يصغي باهتمام كلي، والإبتسامة على شفتيه.

ـ أرجوك المعذرة، إنما هناك أمر لا بد من إطلاعك عليه...

ـ وما هو هذا الأمر الطارىء والخطير؟

ـ جئت أحذرك من السيد فرناند... يبدو أنه سرق مسدساً من غرفة الأسلحة.

تجهم وجه الكونت «ولكن لماذا يفعل ذلك...؟ إنه ما يزال يجهل أني أعرف مدى العلاقة التي تربطه بزوجتي...».

«بزوجتي؟» رددت جيسينا في سرها... لكنه الواقع الذي لا مفر منه... إنها فعلاً زوجته... وأنها الكونتيسة.

ـ ولكن أنت...؟ تابع الكونت «كيف تشعرين الآن...؟».

ـ أنا بخير... ولكن... عليك أخذ الحذر والحيطة...

ـ لا عليكِ جيسينا... هل تسمحين بمشاركتي رقصة الفالس هذه؟

ـ بكل سرور... سيدي الكونت.

أمسكت جيسينا يد الكونت، لكنه أحاط خصرها بذراعه وقادها نحو وسط الحلبة، فيما الكل مندهش لما يرى... أحست جيسينا بقشعريرة في جسدها، أحست بالدفء يسري في عروقها، فراحت ترقص كفراشة تحوم فوق أزهار الحديقة، وهو يرقص كطائر يحلق في الفضاء الفسيح... في فضاء رحب لا حدود له. رأسه على

كتف جيسينا ويداهما تنزلان وتعلوان وفقاً لإيقاع الموسيقى.

ـ ما هذه الرائحة الذكية؟ تساءل.

ـ أية رائحة سيدي الكونت؟

ـ رائحة العطر...

ـ عفواً سيدي، فأنا لم أضع عطراً... تذكرت جيسينا أنها تزين شعرها بزهرة غاردينيا... «آه سيدي، إنها رائحة زهرة غاردينيا غرزتها في شعري».

ـ زهرة غاردينيا؟ وما لونها يا آنسة كارلتون؟

ـ كل أزهار الغاردينيا بيضاء اللون يا سيدي...

ـ لا شك تبدين جميلة جداً وأنت تتزينين بزهرة الغاردينيا أم أنه العكس؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنكِ تزينين الزهرة، ولست أنتِ من يتزين بها...

كلمات بسيطة، معبرة.... لم تتمكن جيسينا من الإجابة... إنه غزل واضح... يعبر عن الإعجاب، وليس عن الصداقة فقط...

ـ جيسينا...

ـ نعم سيدي الكونت.

ـ أما تزال زوجتي تراقص الكونت بويلينيغ؟

أجالت جيسينا عينيها بين الراقصين، فانتابها الإحساس بالقلق والخوف...

ـ لا يا سيدي... لقد بدّلت فارسها.

ـ ماذا...؟ ومن هو الفارس الجديد؟

ـ إنه ليس فارساً جديداً سيدي...

ـ من هو إذن؟

ـ إنها تراقص السيد فرناند.

تجمد الكونت مكانه، وأخذ يشد على يد جيسينا، حتى أحست بالألم...

ـ ما بك سيدي... إنك تؤلم يدي...

ـ أرجوكِ المعذرة... ولكن...

ـ ولكن... ماذا؟

ـ أين هما؟ أوصليني إليهما...

ترددت جيسينا في تلبية طلب الكونت، إذ لا أحد قادراً على التنبؤ بما سيحصل.. مما لا شك فيه، لن يكون هناك عناق بين العروسين، بل...

انتهت الفرقة الموسيقية، من عزف المقطوعة، فعلا التصفيق، وخلت الحلبة، من الراقصين، إلا من الكونتيسة وعشيقها السيد فرناند، إنهما ما يزالان ينتظران المعزوفة التالية، كل يمسك يد

الآخر، غير آبهين بنظرات المدعوين، ولا بالهمس الذي بدأ يتحول إلى كلام مسموع «ما هذا الإنسجام الذي يجمع العروس بوكيلها؟... إنه ليس انسجاماً بل تناغما».

كانت الكونتيسة وكأنها تعانق السيد فرناند، حين اقترب الكونت منها ووضع يده على كتفها... فوجئت فيليسي بتصرف عريسها، لكن المفاجأة الأكبر، كانت برؤية جيسينا إلى جانبه، فرمقتها بنظرة غضب واحتقار.

ـ كنت أظنك على فراش الموت؟ قالت فيليسي موجهة كلامها لجيسينا...

ـ كنت... أجابت جيسينا وتابعت «ولكن ها أنا تعافيت... كما ترين».

تدخل الكونت موجهاً اللوم لزوجته على تصرفها غير اللائق، لكن فيليسي تبادلت النظرات مع السيد فرناند، نظرات التساؤل عما يقصد... إنهما لا يتقنان الإنكليزية، فتدخلت جيسينا متحدثة بالفرنسية.

ـ تصرفاتكِ غير اللائقة. فأنتِ الآن زوجة الكونت هيغو دي ريڤان...

ـ ماذا؟ صاحت فيليسي.

ورد الكونت «إني على علم بخيانتكِ لي... وبالعلاقة التي تربطكِ بوكيلكِ الخسيس... الذي كنتِ تبادلينه القبل في الإستراحة».

شحب وجه فيليسي... وتبادلت نظرات الخوف مع فرناند.

ـ مع من... مع فرناند؟

ـ نعم... هذا ما رأته جيسينا، وسمعت كلام الحب والغزل الذي دار بينكما... أما أنت أيها الخسيس، فما عليك إلا التكفير عما ألحقته بي من عار.

بسرعة البرق نزع الكونت قفازيه، وصفع فرناند على خديه مستعيناً بالصوت للإهتداء إليه... خيم صمت على القاعة... حتى الفرقة الموسيقية توقفت عن العزف... كل العيون جاحظة نحو وسط الحلبة، حيث الكونت وجيسينا في مواجهة الكونتيسة وفرناند. بدا واضحاً أن الكونت فقد صوابه...

ـ إني أدعوك للمبارزة أيها الخسيس...

صعقت جيسينا، كما صعق الجميع، لما سمع... «ما الذي يقوله الكونت؟ أنسيَ أنه ضرير، وليس بمقدوره المبارزة؟». تساءلت... كما تساءل الكثيرون غيرها...

تمنت جيسينا أن يتدخل أحد ما لإقناع الكونت بالعدول عن تحديه هذا... لكن أحداً لم يفعل...فالكل مندهش مذهول، والكل يتساءل عن سبب تصرف الكونت... أما فرناند فانتصب بقامته الطويلة مزهواً بنفسه. وكأنه يقتنص الفرصة للقضاء على الكونت.

ـ لا شيء يفرحني أكثر من استجابة تحديك هذا سيدي الكونت...

ـ عند الفجر وفي الغابة إذن... قال الكونت.

ـ حسناً... لك ما تريد، سأكون هناك... قال فرناند بصوت ينم عن الإزدراء والسخرية... ورمق فيليسي بنظرة حب وقحة وانحنى وقبّل يدها، قبل أن يشق طريقه بين جموع الموجودين في القاعة متجهاً نحو الخارج... أما فيليسي فتابعته بنظراتها وهي تطلق ضحكة أشبه بضحكات العواهر.

ـ إحترمي نفسك أيتها الكونتيسة. قال الكونت... ليس هكذا تضحك السيدات المحترمات...

لكنها بدلاً من الهرب من أمامه، تقدمت منه وألقت برأسها على صدره، محاولة معانقته «أمرك حبيبي». لم يستجب الكونت لتصرفها هذا، بل طلب من جيسينا مساعدته للخروج من القاعة والتوجه نحو غرفته الخاصة، دون تردد أمسكت جيسينا يده، وتوجها معاً خارج القاعة يتسلقان الأدراج المضاءة بالشموع، فما كان من فيليسي إلا أن أسرعت بإثره وهي تصرخ «هيغو، عليك تصديقي... لم أستجب لنزواته أبداً و لم أرضخ لطلباته... غير أني كنت خائفة منه... لا أنكر أنه سرق قبلة من شفتي ليس أكثر، فأنا ما أزال طاهرة... صدقني هيغو».

حدقت جيسينا بها باحتقار وازدراء، أما الكونت فلزم الصمت...

تقدمت فيليسي، وأزاحت جيسينا، ومدت يدها لتداعب وجنة الكونت والدموع تبلل خديها.

ـ هيغو، إننا الآن زوج وزوجة... هذه ليلتنا الأولى تعال معي إلى غرفتنا الخاصة، إني أحبك... وكذلك أنت.

بحركة عفوية أبعدها الكونت عنه وهو يصرّ على أسنانه.

ـ إسمعيني سيدة فيليسي... منذ ساعات ارتكبت خطأً فادحاً، ولن أرتكب خطأً آخر... أنا واثق كل الثقة أنكِ الآن تتذرعين لله أن تستيقظي غداً صباحاً وأنتِ أرملة...

صعقت جيسينا لما سمعت، وأحست بالخوف... «إنه يقول الحقيقة، فغداً ستصبح هذه اللعينة أرملة الكونت هيغو دي ريڤان، وستستولي على كل الممتلكات... وهكذا تكون حققت ما كانت تخطط له مع عشيقها فرناند...».

عادت فيليسي تتوسل إليه أن يصدقها، لكنه مضى في طريقه إلى غرفته الخاصة بمساعدة جيسينا، التي ما إن وصلت إلى غرفتها حتى ارتمت على سريرها تبكي وتنوح... فلا شك سيقضي اللعين فرناند على حبيبها الكونت، وهكذا لا تتلاشى آمالها وحسب بل وتموت كما البشر.

لم ينم أحد تلك الليلة... لا سارة ولا جارولد ولا نانسي ولا بقية الخدم... حتى الأطباق ما تزال على الطاولات...

قبيل الفجر، كان الضباب يغطي قمم الجبال، وخيوط الضوء بصعوبة تتسلل عبره. الكونت مرتدٍ ثيابه مستعداً للمبارزة... وأية مبارزة هي هذه؟ ضرير يبارز إنساناً مبصراً وبالمسدسات؟ رفض الكونت أن يرافقه أحد إلا مساعده الخاص والحوذي سائق العربة التي

ستقله إلى الغابة... لكن جارولد رفض الإنصياع لأوامر الكونت، وأبى إلا أن يذهب معه، ترافقه سارة وجيسينا التي لاحظت أن الكونتيسة، تراقب كل شيء من نافذة غرفتها في الطابق الثاني.

ـ أنظري إنها هناك قرب النافذة... قالت جيسينا لسارة...

ـ لعنة الله عليها،... إنها تصلي لله أن يتمكن عشيقها من قتل الكونت برصاصة واحدة...

لم يكن أحد من الخدم، يدري ما هي الأسباب التي دفعت الكونت لاتخاذ هذا الموقف، لكن الشكوك والظنون كانت تتمحور حول علاقة الكونتيسة بوكيلها المحامي فرناند. وحدها جيسينا وسارة تعلمان السبب الحقيقي. والكل يتوقع أن يتمكن فرناند من القضاء على مبارزه... الخوف يسكن العيون والقلق يستوطن العقول «ترى ما هو مصيرنا؟» تساءل جارولد. «منذ أن حلت هذه الفرنسية هنا، حلت المتاعب والمصاعب، لم نعد نعرف الهدوء ولا السكينة...».

بتثاقل عبرت العربات الجسر الخشبي فوق النهر، متجهة نحو مرجة خضراء وسط الغابة، حيث كان فرناند يدخن سيجارة مزهواً بنفسه، وكأنه طاووس نفش ريشه... لم يكن أمام جيسينا إلا التذرع لله أن تحدث أعجوبة... أن يعيد للكونت بصره قبل المبارزة، وهكذا يتمكن من القضاء على الخسيس القذر، وتنقلب التوقعات رأساً على عقب، وفي الوقت ذاته، كانت تدري أن زمن الأعاجيب قد ولّى.

وقف المتبارزان وجهاً لوجه وكل إلى جانبه شاهده... وكذلك

كان هناك الدكتور بريغز طبيب القرية المجاورة الذي استدعي خصيصاً لهذه المناسبة.

تنهدت جيسينا «آه لو كان أبي هنا؛ لكان ساعدني في محنتي هذه... ولكن هل أقول له أني أحب الكونت؟».

كان فرناند مبتسماً غير آبه لخصمه، حتى أنه لم يستل مسدسه عن خصره، وأطلق ضحكة استهزاء واحتقار، ساعدت الكونت في التعرف إلى مكانه والتصويب إليه، فور الإنتهاء من العد العكسي إيذاناً ببدء المبارزة... تمكن الكونت من إصابته في ذراعه اليسرى، فما كان منه إلا أن استلّ مسدسه وأطلق النار على الكونت فأصابه برأسه، فارتمى أرضاً.

صاحت جيسينا تعبيراً عن خوفها وقلقها وأسرعت لتجثو قرب جسد الكونت الممدد على العشب، ولترى الجرح في جبينه، لكن الطبيب طلب منها الإبتعاد إفساحاً بالمجال لإسعاف الكونت.

ما اهتم أحد بمصير فرناند، بل، انصب الإهتمام على الكونت الذي طلب الطبيب نقله إلى القصر لمعالجته وإنقاذ حياته.

ـ هذا يعني أنه ما يزال حياً قالت جيسينا...

ـ نعم آنستي... ولا أعتقد أن الجرح عميق... المهم علينا الإسراع في نقله إلى القصر...

نقل الكونت إلى العربة، وأُسند رأسه إلى صدر جيسينا، وانطلق الحوذي يحث الجياد على الإسراع، دونما اهتمام للحصى الذي يغطي الطريق.

www.rewity.com dodyadodo

الدموع تبلل وجنتي جيسينا... إنه الآن يلقي رأسه على صدرها، وبعد قليل، قد لا يسمح لها برؤيته... فلا شك أن الكونتيسة لن تسمح بذلك.

في غرفته الخاصة، وعلى سريرة الخاص، وضع جسد الكونت وأخلى الجميع الغرفة باستثناء جارولد وسارة اللذين بقيا لمساعدة الدكتور بريفز. ساعة مضت وكأنها دهر بأكمله، أحست جيسينا أن الوقت لن يمر أبداً، كانت عند الباب ساجدة تصلي لله وتتذرع أن ينفذه، ولو لفيليسي... إنها ترفض، حتى التفكير باحتمال موته...

بعد طول انتظار، فتح باب غرفة الكونت، وخرج الدكتور بريفز والابتسامة على شفتيه، فأدرك الجميع، أن لا خطر على حياة سموه.

أول المتسائلين عن صحة الكونت كانت فيليسي.

ـ كيف هو الآن يا دكتور؟

ـ إنه الآن يغفو بفعل الدواء، أنا قمت بما عليَ، ولكن...

ـ ولكن ماذا؟ صاحت جيسينا.

ـ علينا استدعاء طبيب جراح، لانتزاع الرصاصة وإلا...

تدخلت فيليسي.

ـ أتعرف طبيباً جراحاً يا دكتور بريفز؟

ـ نعم وسأستدعيه للحضور بأسرع وقت، لأن الوقت ليس لصالحنا، كلما أسرعنا بانتزاع الرصاصة، كلما كان الأمل بالشفاء كبيراً.

الفصل السابع

لم يكن أمام الجميع إلا الصبر والتذرع لله، إنهم عاجزون عن فعل شيء...

جيسينا، لم تكن تدري ماذا تفعل... إنها مشتاقة لرؤية الكونت، وخائفة، من فيليسي ألا تسمح لها بذلك... لم تعد قادرة، على تحمل المعاناة... إنه الحب يدفعها للمغامرة. وولوج غرفة الكونت، لكن فيليسي، كانت قرب السرير متجهمة الوجه، وبضعة دموع على خديها...

ما إن دخلت جيسينا، حتى طلبت منها العودة، من حيث أتت، محملة إياها مسؤولية ما جرى...

ـ لولا ثرثرتكِ، لما حصل ماحصل... فاغربي عن وجهي... إنه زوجي وأنا مسؤولة عنه.

لم يكن أمامها إلا الخروج من الغرفة، وفي العين دموع وفي الصدر غصة، وفي القلب حرقة... خرجت متسائلة عن سبب اهتمام الكونتيسة بزوجها «هل هي فعلاً تحبه...؟ هل هي إنسانة طيبة؟ أم أن ما تقوم به الآن، هو استكمال للمخطط المرسوم بالتفاهم مع فرناند؟».

أسئلة كثيرة راودت عقل جيسينا، ولكن، ما من سؤال، وجدت له جواباً.

حين دخلت غرفة الكونت، فعلت ذلك بداعي الشوق والإطمئنان، بداعي إطفاء لهيب نار تشتعل في صدرها، لكنها خرجت، مثقلة بخيبة الأمل وعذاب الضمير... لقد حملتها الكونتيسة، المسؤولية الكاملة لما جرى... ولكن هل كان بإمكانها السكوت، عما رأت وسمعت؟

رأتهما متعانقين، عناق العشاق، «أبداً لم يسرق القبلة كما ادعت... حتى هي كانت تغمره... ويحك جيسينا، أردتِ للكونت خيراً، فسببتِ له شراً...».

كل صلاتها، أن يبقى حياً، حتى ولو مع فيليسي... وإلا، فسيكون عذابها أكبر من أن تتحمله... ستكون هي المسؤولة، وإن عن غير قصدٍ، عن موته...

كانت الدقائق تمر وكأنها بساعات... الكل ينتظر وصول الطبيب الجراح، ويتذرع لله أن يأتي الآن وليس بعد نصف ساعة «فالوقت ليس لصالحنا» هذا ما قالة الدكتور بريفز.

بعيد الظهر، بقليل، توقفت عربة غريبة أمام مدخل القصر، وترجل منها رجل أشيب الشعر، طويل القامة، يحمل بيده حقيبة سوداء، وإلى جانبه سيدة متوسطة العمر، ترتدي معطفاً صوفياً، رمادي اللون،... إنه الطبيب الجراح ومساعدته...

تنفس الجميع الصعداء... وأخيراً وصل، من سيقول القول

الفاصل، إما هناك أمل بنجاة الكونت، وإما لا أمل. لم يضع الطبيب الجراح الوقت، بل صعد مباشرة إلى حيث يرقد الكونت، أصدر أوامر واضحة، تأمين الإضاءة، والمياه الفاترة... الدكتور بريفز بدوره، طلب من الجميع، الإبتعاد عن باب غرفة الكونت، فالعملية الجراحية لاستئصال الرصاصة من رأس الكونت تتطلب الهدوء والسكينة وأي إزعاج، قد ينعكس سلباً على قيامه بمهامه.

تجمع الكل في القاعة الكبرى في الطابق السفلي، إلا فيليسي ارتأت، أن تبقى وحيدة، في الممر الطويل المؤدي إلى غرفة الكونت...

ـ تُرى ما الذي تخفيه الكونتيسة؟ تساءلت جيسينا. أتخفي حباً لزوجها، أم تحاول التظاهر بذلك؟ والحقيقة، هذا ما كان الكل يتساءله، خاصةً سارة ونانسي... حتى الأمس، لم يكن أحد من العاملين في القصر، يثق بها، والكل كان يشك في صدق حبها للكونت... فمن أين لها، كل هذه المشاعر التي تبديها الآن؟ حتى الأمس، كانت لا تعير اهتماماً، إلا للعين فرناند، حتى على مائدة الطعام، دون اكتراث لما سيقوله الخدم... فالكونت لا يرى كيف تتصرف، ولا كيف تتبادل الإبتسامات مع فرناند، وحتى لا يفهم أحد ما يقولانه، كانا يتكلمان الفرنسية.

بعد ساعات ثلاث، خرجت مساعدة الطبيب الجراح، وخلعت القناع عن وجهها والقفازين من يديها، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة... إنها تبتسم رغم التعب الواضح على قسمات وجهها... لم تنتبه المساعدة لوجود فيليسي في الممر، هبطت الأدراج، حيث الخدم.

ـ أعتقد أن سموه سيكون بخير...

وعمت الفرحة الجميع، وانقلبت الوجوه العابسة، إلى وجوه مشرقة... وتحول الإكتئاب إلى أمل... والخوف، إلى استراحة وجدان...

حمداً لك يا رب... قالت جيسينا... فلا ضرورة لتأنيب الضمير، ولن تكون مسؤولة عن وفاته...

بعد المساعدة، وصل الطبيب الجراح، «الحمد لله، فالرصاصة لم تمس دماغ الكونت... كل ما بإمكاني قوله، هو أن الكونت تجاوز مرحلة الخطر، إلا إذا استجدت أمور غير متوقعة، المطلوب الآن، هو تأمين الهدوء، وإلى أقصى حد، وكذلك رعايته لمدة أسبوع على الأقل، يكون بعدها، قادراً، على البدء بالعودة إلى حياته الطبيعية... ولهذا، ستبقى مساعدتي هنا للإهتمام به طبياً، وبالطبع، على الجميع هنا، مساعدتها والحلول مكانها لساعات ليس أكثر تكون خلالها تأخذ قسطاً من الراحة. الكل أبدى استعداده، وأكثرهم تحمساً، كانت فيليسي، «إنه زوجي وأنا مستعدة، لتمضية الليل والنهار عند قدميه».

ما من أحد صدق ما تقوله... الكل تخوف من وجودها وحيدة مع الكونت، فقد تقدم على ما يسبب مضاعفات جانبية... ولكن... إنها زوجته شرعاً وقانوناً، ويحق لها، ما لا يحق لغيرها... وإن كان هذا الأخير، يعتبر نفسه أصدق في مشاعره... نحو الكونت.

بعد أيام ثلاثة، أمضتها جيسينا، قلقة، مضطربة، أخذ الكونت يتعافى... وأخذ يستعيد وعيه... خبر أفرح الجميع، وأعاد إلى القصر، الفرح والسرور، وعادت الإبتسامات، ترتسم على الشفاه...

«لا شك أنها الآن تنم له بأشياء كثيرة، ولا شك ستقنعه أنها فعلاً تحبه، وأن علاقتها بفرناند، لم تكن كما قيل». هذا ما فكرت به جيسينا، وهذا يعني ابتعاده عنها نهائياً، وأنه لن يغفر لها الخطيئة التي ارتكبها بحق زوجته... لقد وجهت لها اتهامات باطلة... ليس هماً... المهم هو أنه تعافى وأن الخطر زال... وقريباً سيعود الدكتور كارلتون، وتعود هي إلى منزلها.. تغادر هذا القصر، دون التفكير بالعودة إليه...

هذه الأفكار الوساوس، كانت تشغل بال جيسينا، الواقفة قرب نافذة غرفتها، سامحة لعينيها أن تحدق في البعيد البعيد. دون التركيز على شيء محدد أو معين... فجأة... سمعت طرقاً خفيفاً على الباب. ودخلت نانسي والفرح بادٍ على محياها..

ـ أرجوكِ نانسي أخبريني... كيف هو الآن؟

ـ إنه بخير... صدقيني إنه كذلك...

ـ وهي أما تزال تستأثر به، وتمنع الآخرين من زيارته؟

ـ لا... إنها متعبة جداً، والليلة ستكون سارة، من سيسهر عليه... لقد أرسلت لكِ هذه الرسالة...

بلهفة، تناولت جيسينا الرسالة، وبلهفة فضتها...

«عزيزتي جيسينا... أنا الليلة من سيعتني بالكونت... فيليسي متعبة جداً، وذهبت إلى غرفتها الخاصة... الكونت يرغب برؤيتكِ فتعالي عند العاشرة ليلا».

الإمضاء: سارة...

أحست جيسينا بالقشعريرة تسري في جسدها... توردت خداها... و لم تعد قادرة على الوقوف... فارتمت على سريرها غير قادرة على الحركة. «الكونت، يرغب برؤيتي... ولكن لماذا؟ لا شك أنها اللعينة، أوغرت صدره... وهو يرغب برؤيتي، لا لإسماعي كلمات الحب والغزل... بل كلمات التوبيخ والتأنيب، لما سببت له من متاعب ومشاكل، ولما زرعتُ في رأسه، من ظنون، كادت أن تودي بحياته...». ولكن ماذا بمقدورها أن تفعل؟ عليها أن تكون في غرفته، وعند الساعة التي حددها، لا هم ماذا سيقول...

عند العاشرة، كانت جيسينا تقف أمام باب غرفة الكونت، لم يكن الباب مغلقاً، إذن لا ضرورة للطرق عليه.. على رؤوس أصابع قدميها دخلت، وأغلقت الباب خلفها بهدوء. إنها ما تزال خائفة... وما تزال تتساءل عن سبب استدعائها... بضعة شموع موزعة هنا وهناك، تضيء الغرفة التي انذهلت جيسينا لفخامتها وروعة أثاثها. سرير معدني وثير وشراشف صوفية زرقاء اللون... منضدة من خشب السنديان، وبضعة مقاعد جلدية. سارة نائمة على مقعد قرب النافذة....

ببطء تقدمت من السرير حيث ينام الكونت... رأسه مغطى

بضمادات بيضاء عريضة، على شفتيه ابتسامة أراحتها «إنه يبتسم... إذن هو ليس غاضباً... ولكن لمن يبتسم؟ لي؟... ومن قال له إني أصبحت إلى جانبه؟».

ـ أهلاً جيسينا... قال الكونت.

فوجئت، فارتعش جسدها.... إنه يناديها باسمها، وبنبرة رضا... كادت الدموع تنهمر من عينيها، لكنها تمالكت نفسها.

ـ وكيف عرفت أني جيسينا سيدي الكونت؟

ـ وتسألين كيف؟... وهل تعتقدين إني غير قادر على التعرف إلى وقع خطواتكِ يا صديقتي الصغيرة؟

«يا صديقتي الصغيرة» منذ أيام... منذ أن جاءت فيليسي، وهي تتمنى لو تسمع هاتين الكلمتين «صديقتي الصغيرة» ارتاحت نفسياً وتوردت وجنتاها.

ـ إني جد آسفة لما سببت لك، ولكني لم أكن أدري، أن الأمور ستصل إلى هذا الحد...

ـ لا ضرورة للأسف، دعينا من الماضي... إني الآن، على يقين كلي، أن فرناند يضمر لي الشر... وكان يمارس أشد الضغوطات على زوجتي... أما أنتِ فتصرفتِ بشهامة... فعلاً إنك صديقتي الصغيرة... لا أحد غير سارة يعلم بما قلته لي، وبأنني استدعيك الليلة إلى هنا.

كان لا بد من انهمار بضعة دموع... مسحتها جيسينا براحة

يدها وهي تشكر الكونت على ثقته بها وتساءلت إن كان أحد يعلم شيئاً عن فرناند.

ـ لا أحد يعلم عنه شيئاً... إنما الحراس وجدوا الجواد الذي سرقه على بعد بضعة أميال من هنا.

تنهدت جيسينا وتذرعت لله، أن يكون هذا اللعين قد اختفى إلى الأبد.

ـ وأنت سيدي الكونت كيف حالك، أتمنى أن تكون أفضل حالاً... وأن تتعافى سريعاً...

ـ شكراً لك يا صديقتي الصغيرة... إني بخير وآمل أن أتعافى قريباً، لأقوم برحلة طالما حلمت بها...

ـ رحلة؟... تساءلت جيسينا باستغراب.

ـ نعم... وقد أخبرت زوجتي بالأمر... سنذهب إلى سويسرا حيث الهواء العليل يساعدني على الشفاء التام... الشفاء من كل شيء...

ـ وماذا قالت سمو الكونتيسة؟

ـ رحبت بالفكرة... لا بل سرت جداً، واتفقنا على أن تسبقني إلى هناك لاستئجار منزل فخم يليق بنا، أو قصر... ومن ثم ألحق بها...

«ما هذا الذي أسمعه؟» قالت جيسينا في سرها «يبدو واضحاً أنه ما يزال يخضع لها، وما تزال تؤثر عليه... ومن يدري، ماذا

ستفعل هناك... قد يكون فرناند بانتظارها...؟».

ـ وكم من الوقت ستستغرق هذه الرحلة سيدي الكونت.

ـ يبدو جلياً، أنكِ ستشتاقين إليّ؟ قال مازحاً...

احمرت وجنتاها خجلاً «ترى أيعرف أني أحبه؟».

ـ بالطبع سأشتاق إليك... واستطردت «ما من أحد هنا إلا وسيشتاق إليك».

ـ في الحقيقة، لا أدري كم ستطول رحلتي هذه... قال هذا وأشاح بوجهه عنها، وتنهد بعمق...

اعتقدت جيسينا أن عليها المغادرة... إنه متعب ويجب أن يرتاح... تقدمت منه، ووضعت يدها على كتفه.

ـ سأتركك الآن لترتاح سيدي الكونت.

لم يجب، بل مد يده وأحاط عنقها وأحناها، حتى لامست شفتاه شفتيها... رقص قلبها فرحاً وانشرحت أساريرها... شفتاه دافئتان، ويده أشبه بغصن طري .

ـ أعذري ضعفي أمامكِ يا صديقتي الصغيرة البريئة أرجوكِ سامحيني...

كلمات، نزلت كالصاعقة، كالماء البارد «صديقتي الصغيرة الوفية» وقبلة على الشفتين. احتارت جيسينا... أتسمح لنفسها بالمضي في تخيلاتها، أم تعود إلى الواقع... واقع أنه متزوج وسيرحل قريباً ليلحق بزوجته في سويسرا... ولكن لماذا تصرف هكذا؟ لماذا

www.rewity.com dodyadodo

قبلني؟... لماذا رجاني مسامحته؟ ومن ثم ماذا يريد مني؟ أيريدني عشيقة؟... أسئلة كثيرة... إنما ما من مجيب على كل هذه الأسئلة...

تململت سارة في المقعد، فتراجعت جيسينا إلى الوراء مبتعدة بعض الشيء عن السرير... فلا ضرورة أن تراها سارة في هذه الحال... مضطربة النفسي، مشوشة الذهن... ولكن أتراها رأته يقبلني؟

ـ يمكنك الذهاب يا صديقتي الصغيرة...

ـ حسناً سيدي الكونت... سأصلي من أجل شفائك...

ـ إني لعلى ثقة، أن الله سيستجيب لصلاتكِ...

كما دخلت على رؤوس أصابع قدميها، خرجت جيسينا، من غرفة الكونت بعد أن تأكدت، أن لا أحد في الممرات أو على الأدراج...

رمت نفسها على سريرها، عيناها عالقتان في السقف، وهي تستعيد طعم تلك القبلة.

بعد أسبوع، كانت جيسينا تستعد لاستقبال والدها والعودة إلى المنزل في القرية؛ كانت تحس بالسعادة لعودته، وفي الوقت ذاته انتابها شعور من الحزن، ستفارق الكونت، ولكن لماذا هذا الحزن، طالما هو مسافر لسويسرا، ليكون إلى جانب زوجته؟

لكن المفاجأة، كانت لجيسينا، كما للجميع، هو قرار فيليسي بتقديم موعد سفرها بضعة أيام، ترى ما السبب الذي دعاها لاتخاذ

مثل هذا القرار؟ هكذا تساءلت جيسينا، وتساءل العديد من الخدم أيضاً، ومن ثم لماذا هذا الإنهماك في جمع وتوضيب كل ملابسها من الفساتين الغالية الثمن، ومعاطف الفرو، وحتى الثياب الداخلية. وكأنها لا تنوي العودة إلى هذا القصر... والذي أثار الإنتباه. وأدى إلى طرح العديد من التساؤلات، هو اعتمادها على وصيفاتها فقط في توضيب الحلي والجواهر، المصنوعة من الذهب والألماس والأحجار الكريمة، تعليماتها كانت واضحة، جمع وتوضيب كل ما خف وزنه وغلا ثمنه... حتى امتلأت الحقائب، الكبير منها والصغير، وتجاوز العدد ست حقائب كبيرة، حوت معاطف الفرو والسترات الجلدية والفساتين الغالية الثمن وثلاث حقائب صغيرة، حوت الحلي والمجوهرات.

بدا واضحاً، أنها تريد الوصول إلى محطة القطارات، قبيل منتصف الليل، ومنها إلى لندن، ومن ثم إلى فرنسا.

كان الكل يراقب كيف توضع الحقائب في العربات، على عجل، وكيف، كانت الكونتيسة المرتدية معطفاً من الفرو، تتمايل وهي تنزل الأدراج وإلى جانبها وصيفتها الخاصة تحمل حقيبة متوسطة الحجم، لا شك أنها تحوي المجوهرات الماسية.

نظرت فيليسي إلى جيسينا، نظرة ازدراء واحتقار، وهي تقول «قيل لي إنكِ أنتِ ستغادرين القصر إن لم يكن غداً فبعد غد... لا أعتقد أن زوجي سيلاحظ غيابكِ ولن يفتقدك». وأطلقت ضحكة، تردد صداها في القاعة الكبرى، ومن ثم توجهت نحو الكونت الذي رغم معاناته، ورغم أن رأسه ما يزال ملفوفاً بالضمادات، أصر

على أن يكون في وداع زوجته عند البوابة الرئيسية للقصر... طوقت خصره بيدها، وطبعت قبلة، على خده «إلى اللقاء يا حبيبي» ومضت نحو العربة المخصصة لها... لم يكن وداعاً مؤثراً، وكأنها، تريد الخلاص منه....

بعد يومين وفيما كانت جيسينا، تنتظر وصول والدها، تلقت رسالة منه، يبلغها فيها، أنه مضطر للتأخر بضعة أيام أكثر، للقيام بواجبه كطبيب في إحدى القرى التي تعرضت لإعصار أوقع العديد من الجرحى... رسالة أحزنتها جداً... إنها فعلاً تريد مغادرة القصر... ولماذا تبقى فيه؟ إنها لا تنكر حبها للكونت، ولكن أي حب هو هذا؟ حب لا أمل منه ولا رجاء... يبدي اهتماماً بها، وفي الوقت ذاته يحدثها عن زوجته وعن تمضية فترة معها في سويسرا، لا يعرف، إن كانت ستطول.

أحبت، أن تبعد الملل، وألا تستغرق في التساؤلات والأوهام، فقصدت غرفة المكتبة، لتنتقي كتاباً، يبعد الضجر، ويزيد من ثقافتها... كان الظلام يلف الغرفة، فأحبت أن ترفع الستائر، ليتسلل الضوء إلى داخل الغرفة، فإذ بصوت الكونت «أرجوكِ أعيدي الستائر إلى ما كانت عليه...».

فوجئت جيسينا «لم أكن أدري أنك هنا سيدي الكونت، سيكون لك ما تريد».

ـ تعالي إجلسي قربي...

تقدمت جيسينا وجلست على كرسي قرب المدفأة...

ـ ولكن، لماذا أنت يا سيدي تريد البقاء في الظلمة؟

ـ وما الفرق عندي؟ منذ زمن، وأنا أعيش في الظلمة، لا ليل عندي ولا نهار... لا أعرف متى تبزغ الشمس ولا متى تغيب... ولكن؟

ـ ولكن ماذا؟

ـ بودي لو تقرئين لي شيئاً...

ـ أمرك مطاع سيدي الكونت...

أضاءت جيسينا الشموع، وعادت لتجلس على كرسيها، وهمت أن تبدأ بالقراءة، فإذ بطرق على الباب.

ـ من الطارق؟ قال الكونت.

ـ أنا جارولد سيدي الكونت.

ـ أدخل، ما الذي جاء بك؟

ـ هناك رسالة من سمو الكونتيسة... قال جارولد، بعد أن دخل الغرفة... من سويسرا سيدي.

فوجيء الكونت... لم يكن يتوقع أن تكون قد وصلت إلى سويسرا، و لم يكن يتوقع أن تكتب له بهذه السرعة.

ـ شكراً جارولد... قال الكونت وهو يتناول الرسالة... يمكنك العودة إلى عملك... فستتولى جيسينا مهمة قراءتها.

تعجبت جيسينا... لماذا هي وليس أمين سره... فلم يسبق لها أن

قرأت له بريده الخاص... ومن ثم، لماذا يطلب إليها أن تفعل هذا؟ أما يقدر مشاعرها، أم أنه يريد، أن يعمق في جراحها؟ ولكن، هل يعرف أنها تحبه؟

«زوجي الحبيب

لقد وصلت إلى سويسرا، وأنا أنزل في فندق فخم، أعتقد أنه المكان المناسب لتمضية فترة شهر العسل... إنه يقع بين الغابات وقرب بحيرة... وهكذا سنمضي أوقاتاً سعيدة معاً... أتمنى أن تلحق بي سريعاً جداً.. فما من امرأة في العالم تحبك، قدر ما أحبك... أنا جد مشتاقة إليك».

الإمضاء: فيليسي.

«ما من امرأة في العالم تحبك قدر ما أحبك» رددت جيسينا، هذه العبارة بينها وبين نفسها... وماذا تقصد؟ أتقصدني أنا، أم أنه مجرد تعبير عن حب حقيقي؟ حب حقيقي؟ لا أعتقد أنها تحبه، ولو مثقال ذرة واحدة...

ـ لم أكن أتوقع مثل هذه الرسالة... قال الكونت ومد يده وأمسك بحبل الجرس وقرعه، استدعاءً لمرافقه الشخصي الذي أسرع بالدخول إلى الغرفة.

ـ أمرك سيدي.

ـ عليك توضيب حقائبي بأقصى سرعة ممكنة...

ـ ولماذا سيدي؟

ـ سأسافر غداً إلى سويسر للقاء زوجتي... لقد وجدت المكان المناسب لقضاء شهر العسل.

صباح اليوم التالي، غادر الكونت القصر، في بداية رحلته إلى سويسرا، دون وداع جيسينا التي تعمدت البقاء في غرفتها.

خيمت الوحشة على القصر، لا أحد غير الخدم. وهكذا تحول جارولد إلى حاكم آمر، ناه... إنه يقرر كل شيء ويبت في كل شيء... أوليس هو رئيس الخدم؟ ولا أحد من أصحاب القصر فيه...

الكل يتساءل عما جرى وما يزال يجري، ولا أحد قادراً عن إيجاد أجوبة على تساؤلاته. جيسينا، استسلمت للأمر الواقع، الكونت وفيليسي متزوجان... إذن لا عجب إن أراد هيغو اللحاق بها «إلى حيث» وجدت المكان المناسب لقضاء شهر العسل... وأي شهر عسل؟ أيام قليلة ويعود والدها، وتعود إلى المنزل الذي تحب، ولكن، هل هذا يعني، نسيانها للكونت؟ أبداً، إنها تحبه... وتحبه دون أمل أن يتكلل هذا الحب، بلقاء أبدي...

تركت جيسينا غرفتها قاصدة غرفة المكتبة علّها تجد كتاباً، يؤنس وحشتها، ويكون الصديق الوفي، خلال هذه الأيام الصعبة... أنارت الغرفة، فإذ برسالة الكونتيسة، لا تزال على المنضدة قرب المدفأة، حيث وضعتها أمس...

أمر غريب... قالت جيسينا... إنها تختلف كلياً، عن رسالة فيليسي التي قرأتها في غرفة سارة... الثانية، مكتوبة بخط واضح،

منمق، يعبر عن ذوق رفيع، أما هذه، فلا الخط واضح، ولا تنحيف في وضع الكلمات تلو بعضها، حتى الأسلوب يختلف كلياً...

أسرعت لسؤال سارة عن الرسالة، فكان الجواب «أحرقتها... ولكن لماذا؟».

الآن أدركت يا سارة. لماذا أقدمت فيليسي على إحراق جميع الرسائل التي تسلمها المرحوم كريسبيان من خطيبته... إن الكونتيسة هذه، ليست هي فيليسي خطيبة كريسبيان...

ـ ماذا؟ صرخت سارة... إنه أمر خطير يا جيسينا...

ـ هذا ما أعتقده... هناك فرق كبير بين الخط في الرسالتين... ومن ثم... لماذا فرناند؟ طالما أن المرحوم الكونت الكبير، هو من تولى الإهتمام بها؟ أو لم يدفع تكاليف دراستها في سويسرا، وتكاليف معيشتها؟ إذن...؟

ـ إذن ماذا؟ ماذا يا جيسينا؟ كلامك مقنع، ولكن هذه التي تزوجت الكونت من تكون؟

ـ هذا ما عليّ معرفته... كل ما أعرفه، ولست متأكدة منه أنها ليست فيليسي الأساسية... إنها تنتحل اسمها طمعاً بثروة آل ريڤان... لم تحاول، ولو بكلمة واحدة، إقناع فرناند، أن يرفض المبارزة التي عرضها الكونت...

ـ الكل لاحظ ذلك، وتعجب... كما الكل لاحظ ترحيب فرناند الفوري بالمبارزة... ما زلت أذكر تلك الإبتسامة الخبيثة التي ارتسمت على شفتيه...

ـ هذا يعني أن الكونت مهدد بالخطر... من يدري؟

ـ حتى في سويسرا؟ تساءلت سارة.

ـ نعم... يا سارة... أعتقد، لا بل إني على يقين، أن فرناند اللعين هو هناك... وأن سفرها المفاجيء ما هو إلا بناءً لطلب هذا اللعين؟

ـ لا أعتقد، أنهما سيتمكنان من إلحاق الأذى بالكونت... فمرافقه الشخصي، لا يفارقه ولو للحظة واحدة...

ـ حتى هذا... قد يكون أولى ضحاياهما... وهكذا يصبح الكونت فريسة سهلة المنال...

ـ ولكن لماذا؟ فالإرث سيعود لها.... ولأولادها...

ـ أنسيتِ وصية الكونت الكبير؟ إن لم تنجب أولاداً فهذا القصر وغيره من أملاك آل ريڤان، لن يكون لها، بل لأحد من آل ريڤان، لأي من أبناء العمومة...

ـ إذن...؟

ـ إذن إنها تخطط لموت الكونت بحادث مفاجيء، وبعيداً عن هنا، وقد تزور الوصية، أو تستحصل على وصية مزورة من الكونت هيغو على أنها الوريثة الشرعية له...

ـ ما العمل...

ـ لا مجال للتلكؤ... عليّ التصرف...

ـ تتصرفين؟ كيف؟

- سأسافر إلى سويسرا...

- إلى أين؟... فما سبق لكِ وغادرت هذه القرية.

- لا تنسي، أن علينا إنذار الكونت... وأني أتقن الفرنسية إلى جانب الإنكليزية...

- وأين ستجدين الكونت؟

- في الفندق، حيث حجزت فيليسي جناحاً خاصاً، ريثما ينتقلان إلى منزلهما في جبال الألب، حسبما جاء في الرسالة.

www.rewity.com dodyadodo

الفصل الثامن

سراً غادرت جيسينا قصر آل ريڤان، لم يعرف أحد، إلى أين ذهبت إلا ذاك الفتى الذي يعمل في الإسطبل الذي أوصلها بإحدى العربات إلى محطة القطارات لقاء رشوة مالية... وهكذا، بدأت الرحلة... رحلة ستدوم يومين، من العذاب النفسي، والتعب الجسدي، والقلق على حياة الكونت الذي يتهدد الخطر حياته، وعليها أن تكون إلى جانبه، لعلها تتمكن من مساعدته والحؤول دون تنفيذ خطة فيليسي وعشيقها فرناند، حسب ما جاء في الرسالة التي تركتها في غرفتها لوالدها.

www.rewity.com dodyadodo

بعد يومين، وقبيل غروب الشمس، كانت جيسينا، تقف على الرصيف المقابل لفندق كرونوس الفخم، حيث يقيم الكونت في جناح حجزته فيليسي كما قالت في رسالتها..

بقلب خافق، عبرت الشارع، وهي تتذرع الله، أن يكون الكونت وحيداً، حتى تتمكن من البوح له، بما تحس به من خوف على حياته، وعن شكوكها، حول هوية زوجته.

استقبلها موظف الإستقبال، بالتأهيل والترحاب.

ـ أنا جيسينا كارلتون، إحدى العاملات في قصر الكونت هيغو دي ريڤان.

ـ أهلاً بكِ آنستي، وكيف لي أن أخدمكِ؟

ـ أرغب برؤيته...

ـ إنه الآن وحيداً في جناحه...

ـ وأين السيدة الكونتيسة؟ تساءلت جيسينا.

ـ لقد ذهبت في رحلة صيد ولن تعود قبل المساء.

ـ المهم، هل من يقودني، إلى جناحه؟ إني أحمل له رسالة من إنكلترا... رسالة جد شخصية.

ـ حسناً آنستي...

نادى الموظف أحد الخدم وطلب إليه أن يرشدها إلى جناح الكونت.

برفق قرعت الباب، فسمعت صوت الكونت.

ـ أدخل.

فتحت الباب، فلم تتمالك نفسها عن البكاء، إنه ما يزال حياً، و لم تنفذ اللعينة مؤامرتها بعد.

ـ أهلاً جيسينا، أدخلي، تعالي.

حدقت جيسينا به وهو يجلس خلف مكتب فخم، والكأس في يده... انتابها شعور غريب دعاها باسمها، حتى قبل أن تتفوه بأية كلمة، فكيف عرف أني جيسينا؟

ـ ما بكِ واقفة مكانكِ، تقدمي..

ـ ولكن، كيف عرفت أني جيسينا؟

نهض الكونت من مكانه وتقدم منها، مد يده لمصافحتها، وقادها إلى مرآة كبيرة معلقة على الحائط ووقف إلى جانبها... قائلاً أنظري إلى عيني.

تجمدت الكلمات على شفتي جيسينا.

ـ هل تراني؟

ـ نعم إني أراكِ...

ـ ولكن كيف حدث وشفيت؟

ـ تعالي واجلسي أولاً...

جلست جيسينا على مقعد جلدي وثير وراحت تصغي إلى ما يقول الكونت.

ـ إنها الرصاصة... الرصاصة يا جيسينا، أترين رُبَ ضارةٍ نافعة؟ سبق للطبيب في الهند، وقال، إني قد أستعيد نظري، و لم أصدق... إنما ها أنا الآن أبصر... ها أنا أرى العالم مجدداً، إنما حتى الآن، لا أحد غيركِ يعرف يا جيسينا.

ـ ولكن لماذا؟

ـ حتى اكتشف نوايا زوجتي، وأكتشف نوايا كل من هم حولي، المهم ما سبب وجودكِ في سويسرا؟

لاحظت جيسينا أنه ينظر إليها بإعجاب، كما لاحظت أنه يتمنى لو بمقدوره أن يأخذها بين ذراعيه فاحمرت وجنتاها خجلاً.

ـ سبب وجودي هو أنت سيدي الكونت... لاحظت أن الرسالة التي قرأتها لك، مكتوبة بغير خط رسالة سابقة أرسلتها فيليسي إلى جدك وكانت لدى سارة.

ـ وأنا لاحظت ذلك يا جيسينا، ولاحظت أيضاً أن التوقيع يختلف عن توقيع فيليسي التي كنت أراسلها وأنا في الهند، وبالطبع قبل أن أصاب بالعمى.

عاد الكونت يحدق بها... ثم ضمها إلى صدره، وطبع قبلة على خدها... أحست جيسينا بدوار في رأسها... وتمنت لو تأتي ساعة القيامة وهي بين يديه.

عاد ووقف مكانه.

ـ أعذريني يا صديقتي الصغيرة... ما زلت أتذكر تلك الفتاة الصغيرة التي تريد استرجاع قبعتها... هات أخبريني ماذا حصل بعد مغادرتي القصر...؟

وراحت تروي له، كل شيء.

ـ أرى أنكِ تحملت العناء من أجلي يا صديقتي الوفية.

ـ وأنت أخبرني، ماذا وجدت بعد استعادة نظرك؟

ـ صباح اليوم التالي لاستفاقتي من غيبوبتي، فوجئت بوجود فيليسي مضطربة قلقة، تزرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، وكثيراً ما

كانت تقف أمام النافذة، وحين تقترب من سريري، كانت ترمقني بنظرات الإحتقار والإستهزاء... هكذا أدركت أنها كممثلة، تلعب دوراً كتب لها، لتؤديه على خشبة المسرح. أدركت أنها لا تهتم بي... كانت حركاتها كلها تدل على هذا... إنها تكرهني، لماذا؟ هذا ما لم أجد تفسيراً له... والسؤال الأهم، هو لماذا تلعب هذا الدور...

ما أحسست بيدها، تلامس جبيني لمسة حب وحنان، وما رأيت في نظراتها، ما يدل، على الحزن أو الأسف، لما أنا فيه، حتى أنها لم تكلمني، عن شيء من مثل هذا القبيل. هكذا أيقنت أن إصرارها، على تواجدها معي في الغرفة، ما هو إلا لمنع أي كان، وأنتِ خاصة، من التواصل معي، مخافةً أن يفضح أحدهم ما كانت تقوم به قبل ذلك.

هكذا، قررت الإستمرار متظاهراً بالعمى. بعد استلامي رسالتها التي قرأتها، رحت أبحث عن رسائل فيليسي القديمة، فلم أجد أياً منها، فساورني إحساس، أنها وبمساعدة فرناند، أقدمت على إخفائها، وهكذا، لم يتسنَ لي المقارنة بين الخطوط ولا التوقيع، مع أني ما أزال أذكر توقيع فيليسي الحقيقية.

ـ ولكن ماذا عن فرناند؟

تنهد الكونت وهو يملأ كأسه، فرناند؟... فرناند؟ أمس كنا نتناول العشاء في صالة الفندق، وكان يجلس إلى طاولة قرب طاولتنا. ينظر إليّ نظرات الإحتقار... إعتقاداً منه أني ما أزال أعمى، والأنكى، أنهما كان يتبادلان النظرات الحميمة والإبتسامات، فتذكرتك، وتذكرت ما رويته عن مشاهداتك في الإستراحة.

ـ والآن... ما الذي ستفعله؟

ـ سأحاول إيجاد فيليسي الحقيقية... عندئذٍ، تنتهي هذه المهزلة، وأتبين الحقيقة.

ـ لكن فيليسي جميلة، أليس كذلك؟

ـ لا أنكر ذلك... إنها فعلاً جميلة

سرحت جيسينا بأفكارها، هل يعقل ألا يكون استسلم لها ولإغوائها؟ أمر مستحيل... إنها تعرف كيف تغوي، وكيف تغري.

ـ أرجوكِ جيسينا، أن تتفهمي موقفي... في البدء، لا بد لي من توجيه الشكر لكِ، لاهتمامكِ الصادق، ولا بد من تقدير ما عانيت في هذه الرحلة من أجلي... أنا الآن، إنسان متزوج قانوناً وشرعاً، وبعد إيجاد فيليسي الحقيقية، سأبطل زواجي هذا، ولكني سأكون خطيباً لفيليسي الحقيقية... أرجوكِ تفهم هذا، كما وأرجوكِ، الإستمرار في مساعدتي والوقوف إلى جانبي.

أحنت جيسينا رأسها، ولولا الحياء لكانت سمحت لدموعها أن تبلل وجنتيها... «إنه لفيليسي وليس لي».

فجأة سمع الإثنان طرقاً على الباب. أدرك الكونت أن الطارق هو زوجته، فطلب من جيسينا الإختباء وراء الستارة، دون أية حركة.

توجه الكونت وفتح الباب، وعاد ليجلس مكانه بمساعدة فيليسي العائدة من رحلة الصيد كما تدعي.

ـ لماذا أقفلت الباب حبيبي؟

ـ خفت أن يتسلل أحد الدخلاء إلى الجناح.

بعصبية واضحة وضعت يديها على كتفيه، وهي تحدق به، وكأنها تتمنى موته الآن.

ـ أتمنى ألا تكون تعتبرني واحدة من الدخلاء؟

استمر الكونت محافظاً على هدوئه «أيعقل هذا؟ فأنتِ شريكة عمري، أنت زوجتي الوفية».

ـ حبيبي، جئت لأقول لك، إن قصرنا الجديد أصبح جاهزاً، وينتظرنا لنبدأ حياة جديدة... أنا الآن عائدة إلى هناك لوضع اللمسات الأخيرة عليه، وقريباً جداً سنذهب معاً، لنكون وحدنا هناك، لا أحد سوانا...

ـ يقال إن الطرق الجبلية تعج باللصوص وقُطاع الطرق، وأخشى أن نقع أنا ومرافقي فريسة لهم، لذلك سألحق بكِ غداً، وليس الليلة... هكذا أسافر في وضح النهار.

ـ لا يا حبيبي... كن على ثقة أن الطريق آمنة جداً، ولكن؟

ـ ماذا؟

ـ لماذا أنت متمسك بهذا المرافق الذي لا ريب سيفسد علينا خلواتنا، واللحظات الحميمة التي أتشوق لقضائها معك.

ـ لا يا حبيبتي، أفضل أن يبقى إلى جانبي.

ـ ولماذا أنا إذن؟ أوليس لأعتني وأهتم بك... قالت هذا، وهي

تقف أمام المرآة، تتمايل بجسدها وتابعت «وجوده سيفسد حياتنا الزوجية...».

ـ لا عليكِ يا زوجتي الغالية، لن يفسد أحد حياتنا.

ـ حبيبي... استدارت وتقدمت لتقف أمامه وهي ترمقه بنظرات الحقد «أريد أن نكون معاً، لا أحد معنا، نشعل نار المدفأة، أرتمي بين يديك، تشبعني قبلات، وكذلك أفعل أنا، صدقني لن أبتعد عنك ولو للحظة واحدة... وأعتذر».

ـ تعتذرين... لماذا؟ تساءل الكونت.

ـ أعتذر منك حبيبي، كنت أتمنى لو بمقدورك رؤية جمال جسدي وأنا قربك، عارية حتى من ورقة التين. لكنك ستحس بنضارته ونعومته... وكيف لي أن أتعرى بوجود هذا المرافق، أخاف...

ـ مما تخافين؟

ـ أن يقتحم غرفتنا، وبالطبع، وبحكم وضعك، لن تكون قادراً على الدفاع عني...

أدركت جيسينا أن فيليسي، تريد تذكيره أنه أعمى، تريد ذلك لإذلاله، وليس تحسساً معه.

ـ معكِ حق يا حبيبتي... سأفكر بالأمر.

عضت الكونتيسة على شفتها، تعبيراً عن غضبها، ومدت يدها لتلامس شفتي الكونت.

ـ إني أحترق شوقاً لنكون معاً في سرير واحد... ولا أحد غيرنا في القصر.

ـ وأنا أيضاً أتمنى ذلك يا حبيبتي، وتأكدي سيكون لكِ ما تطلبين.

ابتسمت فيليسي... أحست أنها تمكنت من إقناع الكونت، بالتخلي عن مرافقه... وهكذا يخلو لها الجو.. وهكذا أيضاً، يمكنها تنفيذ مؤامرتها دون أن يعلم أحد. أمسكت وشاحها، وضعته على رأسها، ودون أن تطبع أي قبلة على خد الكونت، خرجت من الغرفة وهي تقول إلى اللقاء غداً في قصرنا الجديد يا هيغو.

دقائق قليلة، وخرجت جيسينا من خلف الستارة، ترجوه ألا يفعل ما طلبت الكونتيسة منه، «من يدري، فقد يكون فرناند بانتظارك هناك؟».

ـ لا تخافي يا صديقتي الصغيرة، فغداً سأذهب إلى روجمان...

ـ روجمان؟ صاحت جيسينا...

ـ نعم... إنها قرية صغيرة على سفح جبال الألب.

ـ ولماذا؟

ـ في هذه القرية تسكن السيدة غرافال... لا تسألي من تكون؟ إنها مديرة المدرسة حيث كانت فيليسي تتلقى علومها... وعلمت أن خطيبتي ذهبت لتقيم معها، هناك، في تلك القرية الصغيرة...

ـ ولكن...

ـ هكذا قد أجد فيليسي الحقيقية، وأعرف من تكون هذه.. والآن، عليّ تأمين غرفة لكِ... غرفة بعيدة عن الجناح، حتى لا يعرف أحد بوجودك، وإلا ستكون حياتكِ مهددة بالخطر... وغداً تعودين إلى القصر...

ـ لن أعود إلى بريطانيا... أريد البقاء إلى جانبك، أرجوك... أن تسمح لي بذلك...

ـ وإن أصابكِ مكروه يا جيسينا...؟

ـ لا تخف...

ـ حسناً..

استدعى الكونت مرافقه الشخصي الذي فوجيء بوجود جيسينا، وطلب إليه، تأمين كل ما تحتاجه جيسينا، من غرفة لائقة وطعام...

في غرفتها، وبعد تناول الطعام الشهي، ألقت جيسينا جسدها على السرير... إنها جد متعبة جسدياً، وقلقة فكرياً.

ما إن بدأ النعاس يغلب عليها، حتى سمعت ضجة في الشارع وصياحاً. أسرعت لتقف قرب النافذة. علّها تتبين ما يجري، فإذ بالناس يتجمعون حول رجل ممدد على الرصيف، يصرخ من الألم، وإثنان يركضان مسرعين هاربين. حدقت جيسينا، فبانت لها ملامح المرافق الشخصي للكونت هيغو «هكذا إذن... لقد بدأت الكونتيسة تنفيذ ما خططت له... والمرافق هو أول الضحايا».

ارتدت ثيابها وأسرعت في النزول عبر السلالم إلى غرفة الكونت، لكنها لم تجده، فتابعت سيرها نحو قاعة الإستقبال فإذ بالكونت يقف عند المدخل والنظارة السوداء على عينيه، إنه ما يزال يتظاهر بالعمى... كم هو إنسان عصامي؟ تساءلت جيسينا وهي تقترب منه.

ـ ما الذي جرى سيدي؟

ـ سامحه الله، حذرته ألا يخرج من الفندق، في هذا الوقت، صدقيني جيسينا، إني واعٍ ومدرك لمخططات فيليسي.

تعجبت جيسينا، لم يقل زوجتي، أو الكونتيسة... اكتفى بالقول فيليسي.

ـ وماذا ستفعل الآن؟

ـ سينقل إلى غرفة خاصة، واستدعي طبيباً للإهتمام به، حتى عودتي من رحلتي إلى روجمان...

ـ أما تزال مصمماً على الذهاب إلى هناك؟

ـ نعم... هذا أمر لن أتراجع عنه.

ـ إذن سأذهب معك...

ـ أمجنونة أنتِ؟

ـ نعم... لن أدعك تذهب وحدك.

ـ وإن وجدت فيليسي الحقيقية، ماذا؟

www.rewity.com dodyadodo

قاطعته قائلة: «أكون شاهدة على ما تقول، ولا تنسَ فأنت أعمى أليس كذلك؟ إياك رفض طلبي هذا، وإلا سألحق بك».

ـ حسناً ليكن ذلك... ما إن يبزغ الفجر، حتى ننطلق،

ـ وهو كذلك.

الفصل التاسع

قبيل بزوغ الفجر، انطلقت العربة... ضباب يلف المدينة، وريح تهب من حين لآخر، وقطرات ماء تتساقط.

جسينا، إلى جانب الكونت، عيناها سارحتان في الطريق الطويل... تنهدت، وهي تسرق النظر، إلى من تحب وتهوى. وتتمنى لو يأخذها بين ذراعيه، يشعرها بسكينة وجدانية واستراحة نفسية.

ببطء كانت العجلات تدور، والحوذي يحاول حث الجوادين على الإسراع، لكن الحصى التي تغطي وجه الطريق، كانت تحول دون ذلك...

رويداً، رويداً، بدأ النور يتسلل عبر الضباب الذي يكون كثيفاً في مكان، وخفيفاً في مكان آخر... إنما الريح ما تزال تلسع وجه جيسينا بنسمة صقيع، فاحمرت وجنتاها، وشعرت بالبرد يسري في كل جسدها، فما كان من الكونت، إلا أن لف جسدها بمعطفه الصوفي، وهو ينظر إليها، من خلف نظارته السوداء.

ألقت جيسينا رأسها على صدره... فشعرت بالدفء...

وراحت التساؤلات تقلق بالها وتشغل عقلها؛ آه لو كنا اليوم في رحلة استجمام؟ آه لو كان يحبني كما أحبه؟

الأسئلة تأتي سؤال بعد سؤال، والعربة، ما تزال تشق طريقها نحو روجمان... لكنها طريق طويلة ووعرة، جبال هنا وهناك، وثلج أبيض يغطي كل شيء... بضعة بيوت تتوزع عشوائياً... إنها دلالة الوصول إلى أول بلدة...

شكر الكونت ربه. «قد نجد فندقاً صغيراً، نبيت فيه هذه الليلة». قال وهو يربت بيمناه على كتف جيسينا...

ـ أتمنى ذلك... فعدا عن التعب والإحساس بالبرد، فأنا جائعة...

ـ وأنا كذلك... فوق هذا، فليس من المعقول، أن نتابع سيرنا وسط الظلمة... أتسمعين الذئاب تعوي؟

ـ نعم... إنها أول مرة أسمع فيها عواء الذئاب، لكن صفير الريح، يطرب سمعي.

أمام الفندق صغير، توقفت العربة، وترجل الكونت أولاً، ثم مد يده لمساعدة جيسينا في النزول.

في قاعة الفندق، وقرب مدفأة مشتعلة، جلس الإثنان إلى طاولة، عليها باقة من الزهر الذي ينمو في تلك المناطق الجبلية. ويتمكن من مقاومة صقيع الثلج، وعصف الريح. بدا واضحاً، لصاحب الفندق، أن نزيله هذا، ليس إنساناً عادياً...

ـ «لا شك أنه واحد من نبلاء بريطانيا... إنه يتكلم الإنكليزية» قال صاحب الفندق لرئيس الخدم.

ـ يبدو ذلك واضحاً يا سيدي... أنظر إلى قامته الممشوقة ومنكبيه العريضين...

تقدم صاحب الفندق، مرحباً، ومتسائلاً «كيف لي أن أكون في خدمتك سيدي؟».

ـ لك الشكر... في البدء نريد طعاماً...

ـ إننا مشهورون بلحم الأرانب المشوي، وإلى جانبه الصلصة الخاصة به، وكذلك هناك أصناف عدة.

ـ إذن، أعطنا صحنين من لحم الأرانب المشوي... كذلك.

ـ ماذا سيدي؟

ـ نريد المبيت هنا، فهل يمكنك تأمين غرفتين مريحتين؟

ـ سيكون لك ذلك... ونتمنى لكما إقامة سعيدة بيننا.

ـ إقامتنا لن تطول... إننا نقصد روجمان...

ـ روجمان؟ ولماذا؟ فهي ليست قرية سياحية.

ـ الحقيقة، إننا نرغب بزيارة السيدة كرافال... كانت مديرة مدرسة في جينيف وتقاعدت... أتعرفها؟

ـ لا سيدي.

انبرى أحد الجالسين إلى القول «أنا أعرفها... ولكن».

ـ ولكن ماذا سيدي؟ تساءل الكونت.

ـ قضت في الإنهيار الثلجي الذي حدث العام الماضي. تجهم وجه الكونت وكذلك وجه جيسينا...

ـ الحقيقة، إني أبحث عن فتاة فرنسية كانت تقيم معها.

ـ آه سيدي... كان يقيم معها فتاتان، واحدة، ماتت متأثرة بالإنهيار الثلجي، والثانية ما تزال على قيد الحياة.

تنفس الكونت الصعداء، وانشرحت أساريره نوعاً ما... من يدري، فقد تكون فيليسي هي الناجية.

ـ على كلٍ... لا بد من الذهاب إلى هناك والتحقق من الأمر.

ـ هذا صحيح، قال صاحب الفندق، ولكن لا يمكنك المتابعة بواسطة العربة، لأن هناك نفقاً لا يتسع لمرورها إذن عليك الإستعانة بالجواد فقط...

ـ وكم تبعد هن هنا؟

ـ ساعتان ليس أكثر.

ـ حسناً سيدي، لكم الشكر جميعاً على ما تقدمونه لنا...

عند الصباح، انقشعت الغيوم، وبان قرص الشمس، الثلج الأبيض يعكس إشعاع النور، فتنبهر العيون... هدوء وسكينة...

صعدت جيسينا إلى صهوة الجواد، وصعد خلفها الكونت، غمرها بذراعيه وهو يمسك اللجام. أحست بالنار تسري في

جسدها، احتارت ماذا تتمنى... أأتتمنى أن تكون فيليسي هي التي ماتت، ليكون لها وحدها؟ أم لا...؟

بعد المسير نحو من الساعة، بان الطريق الذي يشبه النفق، جبال شاهقة، مكللة بالثلوج، وطريق ترابي ضيق... الضباب، يكاد يمنع الرؤيا... فعلاً إنه ممر موحش كما قال صاحب الفندق، أحست جيسينا بالخوف، لكن وجودها بين ذراعي الكونت، أدخل الطمأنينة إلى صدرها، وأبعد الخوف.

كان الجواد يسير الهوينا، ولم يشأ الكونت حثه على الإسراع، مخافة أن يتعثر في مشيته... وأخيراً، وبعد لحظات قلق واضطراب، خرج الجواد من الطريق الضيق، فإذ بسهل فسيح، تنبت الأعشاب فيه، متحدية طبقة الثلج الذي تغطيه... كذلك بضعة أزهار... ارتاح الإثنان... فروجمان، بدت طيبة وادعة، تتوزع بيوتها هنا وهناك... الدخان يتصاعد من المداخن... قطعان من المواشي، تبحث عن الكلأ... بدا واضحاً أن روجمان، لم تلملم جراحها بعد... فالعديد من البيوت، ما تزال مهدمة، إضافة إلى بيوت أخرى، ما تزال ترمم.

وسط الساحة، كان فتى، يلعب بكرات الثلج وحيداً... وكأن لا أحد غيره في هذه الضيعة... تساءلت جيسينا عن السبب الذي دعا السيدة كرافال لاختيار هذه الضيعة لتمضية بقية حياتها فيه...؟ وتساءلت مندهشة عن الجبل الذي يقف عند طرفها شامخاً عالياً، لكن شموخه انحنى تحت تراكم الثلج، فانهار مسبباً خراباً ودماراً وموتى، ومشردين.

تقدم الكونت من الفتى وحياه، قبل أن يسأله عمن يمكن أن يعطيه معلومات وافية عن السيدة كرافال؛ فأشار الصبي إلى منزل متواضع ذي شبابيك حمراء.

ـ إنه منزل جدتي.

باحترام انحنى الكونت أمام السيدة العجوز.

ـ إننا نسأل عن الآنسة فيليسي دي ليل يا سيدتي.

لم تسمح له العجوز أن يكمل حديثه... بل تنهدت، وهي تشير بيدها إلى مقبرة الضيعة بالقرب من الكنيسة، وهي تقول «إنها هناك... إلى جانب السيدة كرافال» وانهمرت الدموع من عينيها، وأدارت ظهرها ودخلت إلى المنزل، كذلك استدار الكونت وجيسينا، واتجها نحو المقبرة، لم يكن من الصعب الإهتداء إلى القبر... مدفنان متجاوران الأول للسيدة كرافال، والثاني للآنسة فيليسي دي ليل 12 تشرين الثاني 1836 جنيف ـ حزيران 1875 روجمان....

انحنى الكونت وقطف زهرة برية ووضعها على القبر... والدموع تنهمر من عينيه، كما من عيني جيسينا.

ـ مسكينة هي هذه الفتاة... ما عاشت طفولتها ولا عاشت شبابها... صغيرة فقدت والديها، وفي الحادية والعشرين من العمر رحلت، رحلت في العمر الذي يجب أن تحياها.

تقدمت جيسينا وأمسكت يد الكونت وكأنها تريد مواساته.

ـ إفهميني جيسينا. قال الكونت... أنا لا أبكي إنسانة أحببتها، فلم يسبق أن رأيت لها وجهاً. إنما أبكي الصبية التي أحبها أخي... الحقيقة، أني أبكي أخي...

تنهدت جيسينا، محتارة ماذا تقول.

ـ والآن علينا يا جيسينا معرفة من تكون التي انتحلت شخصية المرحومة فيليسي... أليس كذلك؟

ـ نعم... ما علينا إلا سؤال كاهن البلدة. فقد يكون يملك معلومات عنها.

ـ فكرة جيدة.

تنهد الكاهن «ماذا أخبرك يا بني... كانت ليلة أشبه بليالي جهنم... السيدة كرافال ماتت فوراً، أما الآنسة فيليسي، فقد أمضت نحواً من ثلاثة أشهر تعاني الألم الذي تسببه الجراح إلى أن انتقلت إلى عنده تعالى... ثلاثة أشهر من العذاب وشبه الغيبوبة...».

ـ ألم تستعد وعيها قبل موتها؟

ـ أبداً يا بني...

ـ ولكن ماذا عن الشابة الأخرى التي كانت تقيم مع السيدة كرافال؟

ـ إنها ليزيت ابنة شقيق السيدة كرافال... هذه أيضاً عاشت يتمية الأب والأم، إنها جميلة جداً... لكنها كانت طموحة جداً...

طموحة إلى حدود الطمع... كانت تتصرف بغرابة وبتهور أحياناً... كانت النقيض للمرحومة فيليسي.

لم يشأ الكاهن أن يبوح بكل ما يعرف، إلا أن الخادمة تولت ذلك...

ـ كانت إنسانة مستهترة... جشعة، وطالما لاكتها ألسنة الناس بالسوء...

ـ لماذا سيدتي؟ تساءلت جيسينا..

ـ بسبب علاقتها مع ذاك الأرعن ابن رئيس بلدية جنيف... حتى والده تبرأ منه...

ـ وما كان اسمه سيدتي؟

ـ فرناند... فرناند اللعين... بسببه اضطرت السيدة كرافال المجيء إلى هنا، علها تتمكن من إبعاد ابنة شقيقها عنه، حتى لا تتسبب بالفضائح.

ـ إخرسي يا امرأة... صاح الكاهن. ففي القرى تكثر الأقاويل وتنتشر الإشاعات...

ـ معك حق يا أبتي... قال الكونت... لكن هل كنت تعرف أن المرحومة فيليسي كانت مخطوبة لضابط بريطاني في الهند؟

ـ نعم يا بني... ونعلم أيضاً أن ولي أمرها توفي، وحزنت عليه حزناً شديداً...

ـ ومن اعتنى بها قبيل وفاتها؟

ـ الآنسة ليزيت، فهي التي صارت تتولى كل الأمور حتى استلام البريد العائد لفيليسي...

«حتى استلام البريد العائد لفيليسي» قال الكونت لنفسه... مما يعني أنها كانت تطلع على كل شيء، ولا شك قرأت جميع رسائلها المتبادلة إن مع أخي أو معي...

ـ وأين يمكننا إيجاد ليزيت يا أبتي؟

ـ اختفت... بعد ساعات من موت فيليسي اختفت ليزيت وقد حاولنا البحث عن عنوان خطيبها لإعلامه بالأمر، لكننا لم نجد شيئاً. لم نجد أية رسائل ترشدنا إلى عنوانه... كل ما وجدناه رسالة بخط فيليسي، إنما غير معنونة... ما أزال أحتفظ بها... إنها موجهة للسيد هيغو دي ريڤان.

ـ إنه أنا يا أبتي... أنا الكونت هيغو دي ريڤان... فهل لي بالرسالة؟

ـ نعم...

ـ وماذا عن أشيائها الخاصة؟ تساءلت جيسينا.

ـ لم نجد شيئاً، حتى الثياب اختفت...

ـ عفواً يا أبتي... هل من الممكن تذكيري باسم حبيب الآنسة ليزيت؟

ـ إنه فيليب فرناند ابن رئيس بلدية جنيف...

فرناند... فرناند... تمتم الكونت وهو يتناول الرسالة.

www.rewity.com dodyadodo

عزيزي هيغو دي ريڤان

إني لعلى ثقة تامة، أن موافقتك على الزواج بي، ما هي إلا احتراماً لرغبة جدك... وإكراماً لذكرى أخيك كريسبيان الذي أحببته كما أحب هذه الأرض، وكما أحب هذه الجبال.

اليوم يا عزيزي هيغو... وبعد التفكير بهدوء، لا بد من قول الحقيقة، أنا ما أزال أحب كريسبيان، ولن أكون الزوجة التي تسعدك... وبالوقت ذاته، لا أجد نفسي قادرة على العيش بعيداً عن هذه الأرض.

لذلك... فأنت بحل كلي من التزاماتك تجاهي، مع التأكيد على أني سأكون الصديقة الوفية، ولن أنسى ما قدمه لي جدك... وسأصلي دائماً من أجله، متمنية لك السعادة في حياتك.

روجمان في 24 آذار 1857

الصديقة الوفية إلى الأبد

فيليسي دي ليل.

مسكينة هي هذه الفتاة... قالت جيسينا وهي تمسح الدمع عن خديها... أحبت هذه الأرض بصدق، وها هي اليوم ترقد فيها بسلام... رحمها الله.

كذلك مسح الكونت دموعه، و لم يغادر روجمان، إلا بعد إقامة الصلاة عن نفسيهما، وأوصى الكاهن ببناء ضريح فخم يضم رفاتهما معاً... ودفع ما يتوجب لبناء هذا الضريح.

ـ منذ صغرها يا أبتي وفيليسي تحب السيدة كرافال...

ـ وكذلك كانت السيدة كرافال... أحبتها أكثر بكثير مما أحبت ابنة شقيقها. قال الكاهن وهو يصافح الكونت مودعاً.

ـ أتعرف يا أبتي... لو وصلت هذه الرسالة في موعدها لكانت غيّرت أموراً كثيرة في حياتي.